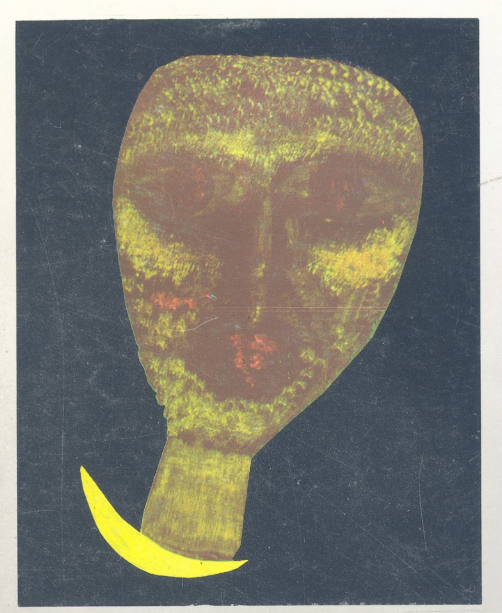
محمّد جاسم الحميدي



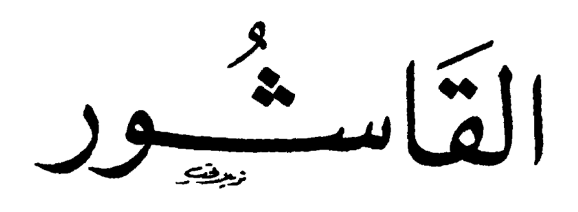
القاشور

نزيهيات

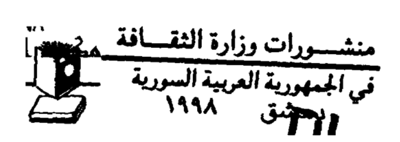
قصص وروايات عربيّة

« ٨٥ »

محمد جاسم الحميدي



قصص


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

القاشور: قصص/ محمد جاسم الحميدي . - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨ .- ١٦٠ص؛ ٢٠سم.- (قصص وروايات عربية؛ ٨٥).

١-١٠ر٨١٣ ح م ي ق ٢- ٠٠٩٥٦١ر٨١٣ ح م ي ق
٣- العنوان ٤- الحميدي ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٥٠٠ / ٣/ ١٩٩٨

قصص وروايات عربية

« ٨٥ »

الإهداء

إلى أبي الذي علمني أن الحكاية ديّة للقتيل كالحلال والمال، ومهر للعروس كالذهب والفضة، وثمن للعرش كالقوة والسلطان، وتزيد عن ذلك أنها خالدة كالروح.. ينتهي عرض الدنيا، ولاينتهي سر الحكاية...!

عبد الله يبحث عن سمة العصر

فتح عبد الله عينيه، وشأن من نام طويلاً، أو تضاحى كان مصدوعاً وجائعاً، ولعابه المتخثر أشد مرارة من الحنظل!

وعلى غير عادته، لم يكن الجوع هو الذي انشغل به فور استيقاظه، إذ كان يحس قلقاً غير عادي، وكآبة مريرة، وضياعاً، وهي ليست أحاسيس غريبة عليه إلاّ أنها الآن تجثم على قلبه كالجبل، وتجعله محبطاً لايقوى على الاعتدال من رقدته. . إنه ككتلة الرمل التي لاتملك أن تنهض بنفسها. . !

هل هي النهاية؟ أيموت راقداً؟ وهل كان يظن أنه سيموت واقفاً كالأشجار، أو راكباً ظهر حصان كالسلف الصالح من أجداده؟ أيحدث أخيراً ماتمناه؟ لقد تمنى الموت لنفسه غير مرة، ليتخلص من عذاباته، فهو لايستطيع أن يضع حداً لحياته بيديه، بل لايملك حتى أن يفكر بالانتحار بالرغم من أنه متشرد، يوم في الحديقة، وآخر في محطة ما، وثالث على رصيف يخلو من المارة، ورابع في بيت أحد الأصحاب كما حدث له أمس، إذ بكثير من المرارة، بل والنفاق لصاحبه، أو لمن كان صاحبه، فلم يبق له أصحاب منذ أن تشرد، استطاع أن يلج بيته، وأن يظل لوقت متأخر ليرقد فيه. . . !

وبالرغم من أن صاحبه أيقظه باكراً إلاّ أنه تناوم ليكسب ساعة أو بعض ساعة، ولما كان صاحبه قد تأخر عن العمل أمره بغلظة وجفاء قبل أن يغادر، أن يغلق الباب خلفه جيداً حين يخرج!

وخمّن عبد الله أنه قد شتمه ولعنه مراراً، فالمستقرون الذين لهم عمل ينشغلون به، وبيت يؤبون إليه لايرغبون بصحبة المتشردين الذين إما أن يطلبوا مبيتاً، أو يطلبوا طعاماً، أو يطلبوا الاثنين معاً، في وقت ما عاد فيه العمل يكفي فماً واحداً! وصاحبه أرقده أمس دون عشاء إذ أفهمه أنه وحداني يأكل خارج البيت عادة، لقد كان مهذباً معه، مع أن المستقرين غير مهذبين بالمرة مع المتشردين! لكن عبد الله الذي لبست القناعة قلبه كقفاز، حمد ربه على أنه أمَّن رقدة ليلة مريحة، ولم يطمع في عشاء لاوجود له في بيت الوحداني.

لاشك أن السبب الأساسي في ضعفه الآن يعود إلى أنه لم يطعم طعاماً منذ يومين. . ! لو كان لديه خاتم «شبيك لبيك عبدك بين ايديك» لطلب منه فوراً وجبة لاتخطر على بال السندباد البحري نفسه، وجبة تضم كل أنواع اللحم الذي يؤكل على

الأرض. . ! لا. . لا، سيستغني عن بعض اللحوم، فهناك من يأكلون لحوماً لايستسيغها عبد الله، فهل سيأكل لحم الخيل، أو لحم الخنزير، أو لحم البشر، أو لحم السلاحف والضفادع. . ؟! وفاجأ عبد الله نفسه متلبساً بالتخمة والبطر، فقال لنفسه: الله. . الله أنت تتدلّل ياعبد الله، وتختار أيضاً. . ومِمَّ، من لاشيء؟! لقد ذهبت بعيداً، إنه الجوع اللعين دون شك، الكافر الذي لاتجوز فيه حيلة، ولايسكته كلام والذي يحشرك عنوة في دائرة إلحاده آكلاً للحم الميت والحي، المحلل والمحرم.

هذا الكافر اللعين الذي أذهب نفسه شعاعاً، وعصره عصراً حتى أصبح كالمصران، لم يفلح في طرد القلق الممسك بخناقه كالعلق، قلق باهظ ثقيل وخيم مظلم كالجهل لايدري سببه ولامصدره. . لماذا يعنت نفسه بالتفكير فيه فيزيد الأمر سوءاً؟ ليهمله، ليتجاهله وعندها سيأتيه السبب راكضاً كطفل يستقبل أباه بعد طول غياب. . !

عليـه أن ينهض الآن من رقـدته، ويفـتش في البـيت عله يجـد ولو كـسـرة خـبـز فـحـتى بيت الوحداني لايخلو من كسرات خبز، أو بقايا طعام مـعتَّق. . ! نهض عـبد الله بصعـوبة، وفي المطبخ وجد بالفـعل، دون بحث، رغـيفاً كـاملاً! رغيف كـامل بكل أبهته يجثم بإهمـال فـوق المجلى. . ! إن المستـقـرين لايبـالون بالنعـمـة، ولايحـمـدون الله عليـهـا. . ! فـمن يفـرّط في رغـيف خـبـز كـامل، ويتركه مـهـملاً كعجـوز خرف؟! ومن سيفلت من قبضة الغازي الأعظم، الجوع الـذي سيمرّغ اللِّحية واللُّحيّة في تراب كفره، ويجعل الرغيف أندر من بيضة الرخ. . ؟!

قبض عـبد الله على الرغيف بكلتا يـديه، كأنما يخشى أن يختطفه الغازي الأعظم، أو كـأنما يقبض على كنز! إنه يابس، وقـد تراكم عليه الـغبار أيضاً، الله وحـده يعلـم مـتى وضع في مكانه هذا! لـكن

ذلك كله لايقلل من قيمة هذه اللقية الثمينة الرائعة، إنها لاتقل عمّا وجده حسن البصري في قصر السحاب، قصر الجنيّات السبع.

نفخ عبد الله على الرغيف عدة مرات، ومسحه بثيابه، ثم نضح عليه الماء ليطرى. . ولم يملك أن يتريّث حتى يتشرب قطرات الماء، بل قضم عدة قضمات، وقال لنفسه: سيلين قريباً، أو ليلن في فمه وجوفه، إنه خبز والجائع «يدهك» حتى الحجر!

قضم عدة قضمات أخرى، وأقسم أنه أشهى من رغيف ساخن، أشهى من مائدة السندباد البحري التي قدمها للسندباد البري عندما التقيا لأول مرة!

بعد بحث مضن لم يعثر على أثر للسكر أو للشاي، لكنه وجد الإبريق مملوءاً حتى منتصفه ببقايا شاي قديم، تطفو فوقه طبقة العفونة الخضراء!

سكب الشاي في كأس ماء كبيرة، وتذوقه إنه جاهز، فهو حلو ولاينقصه السكر، غسل الإبريق جيداً ليزيل العفونة التي ترسبت في قعره وجوانبه كالطحالب، ثم سكب الشاي فيه من جديد، وسخّنه حتى علا البخار الشذي، وبدأ يتسرب من فم الإبريق. سكب الشاي مرة أخرى في الكأس، وغمّس رغيفه فيه. إنها وجبة رائعة! لاينقصه بعدها غير لفافة تبغ. . . ! إن صاحبه لايدخن وإلاّ لوجد في المنفضة أعقاباً ما صالحة للتدخين. . ! لفافة التبغ أصبحت تساوي حماراً وحيداً في مطحنة مزدحمة، مع هذا القلق اللّزج الذي عاود هجومه كغازٍ لايرحم مكتسحاً دفاعات عبد الله المتمثلة بتجاهلٍ هشٍّ، أو تبريرات تتساقط كذباب رش بالمبيدات.

لقد اعتاد عبد الله على القلق الذي يهاجمه بعد كل وجبة يحصل عليها، أو ليلة يرقد فيها، إذ

عليه أن يفكر عقبها مباشرة متى سيحصل على وجبته التالية؟ وأين سيرقد ليلته القادمة؟ لكن القلق الذي يهاجمه الآن لايتعلق بهموم الطعام أو المبيت. . إنه قلق حاد وعميق، كآبة كأنما قد تراكمت وترسبت من قبل، كما تراكمت وترسبت الأتربة فوق حوت في البحر حتى تحول إلى جزيرة خادعة، حط فوقها السندباد البحري ذات يوم!

مايشعر به عبد الله هو إحساس بالضياع الكامل، كأنما كان يملك شيئاً وفقده، مع أنه لم يملك طول عمره شيئاً يمكن أن يفقد؟

مهلاً . . مهلاً . . هاهوذا! إنه يدركه الآن، يتبيّنه واضحاً ساطعاً كأنما كتب بحروف عريضة كبيرة، كأنه عنوان في جريدة (لاسمة للعصر)، فصاحبه قال له أمس وهو يحاوره، لاسمة للعصر . . لقد أضاع العصر سمته . . ! ربما قرأ ذلك في جريدة ما، بل هذا هو المرجّح، فصاحبه كان

متحمساً، وقد كرر قوله عدة مرات، وكأنه اكتشف لغز العصر، وهو لا يتحمس عادة لفكرة مالم يكن قد قرأها في كتاب ما، في جريدة ما، في مجلة ما، في خرافة ما.. !

لم يفاجئه اكتشاف صاحبه أمس، بل لم يعتبره اكتشافاً بالمرة إذ بدا له ذلك معروفاً، فمع أن السندباد أسنّ، وتوقف عن الترحال وريادة جزر جديدة، إلاّ أن العالم حوله كان يتغير، والأحلاف تنهار، والحالمون يتراجعون.. !

لقد كان عبد الله يحس بذلك كله من قبل، لكنه طوال الوقت كان غارقاً في همومه الذاتية، ولم يجد وقتاً ليتأمل ماحدث... !

الجديد الذي فاجأه هو إحساسه أن الأمر يعنيه شخصياً! وأن عبد الله نفسه قد ضاع كلية مع ضياع سمة العصر! وأن الهزيمة التي حدثت هي هزيمة شخصية لحقته هو قبل أي شخص آخر، وأن

مايحدث له هو بسبب ماحدث للعصر ، فكيف كان عبد الله غاراً غافلاً غارقاً في همومه الشخصية حتى أنه لم يدرك حجم الكارثة ، إنها أكثر من نكسة ، وأكبر من نكبة . .

لام عبد الله نفسه على غفلته وسلبيته حيث تجاهل ذلك الأمر طويلاً ، وهاهو ذا ينشغل به الآن ، إن لم ينشغل عبد الله بسمة عصره فمن سينشغل بها إذن؟ !

إن فقد العصر سمته فعلام يتوكأ عبد الله؟ وبماذا يأمل؟ وبأي هدف يتمسك؟ ! لقد كانت هي الأمل والراية والسلاح !

لن يحتل عبد الله قصر السندباد ، ولو في الحلم ، ولن يلوث ستائر الشرفات العالية بدمائه ، ولن يبقى في يده سلاح ليشهره في وجوه كل من لايؤمنون بسمة العصر الضائعة تلك؟ ! بماذا سيحارب البرجوازيين ، كباراً ووسطاً وصغاراً ،

وبماذا سيحارب الطغاة المستغلين والسماسرة التجار، وعلى أي أساس مكين سيحاسب السلطان وبطانته الذين ركبوا سمة العصر كما يركبون خيلهم وبغالهم وحميرهم، فحصدوا كل مافقده عبد الله، وجمعوا من المال، ماتنوء بحمل مفاتيحه العصبة الباغية، ورأوا من الجواهر واللآليء والأحجار الكريمة أكثر مما رأى السندباد البحري في رحلاته السبع، فملؤوا بيت المال وبيوتهم، وبيوت أبنائهم وأبناء أبنائهم، وإخوانهم وأعمامهم وعماتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وبنات الأخ وبنات الأخت.. و«لخيمتهم» كلها، وعند ذاك تنكروا بأسمال كأسمال عبد الله، ليطلعوا على أحوال العباد الجياع..!

عبد الله في وضع صعب حقاً، لقد فقد الهدف والدليل، ولاب حائراً كانتهازي في مفترق طرق، يتقدم خطوة ويتأخر خطوة، وأصبحت حاله تصعب على العدو قبل الصديق!

هرش لحيته التي حاككته، لقد طالت كثيراً، ليحلقها إذ لابد أن يجد في البيت أدوات حلاقة، فحتى بيت الوحداني لايستغني عنها، بل إن الوحداني المنشغل بعمله، الآيب إلى بيته شديد الحرص على الظهور بمظهر لائق دائماً لأنه فخه لصيد الغزالة التي تعطي لبيته مظهر البيت المسكون، وعدة الحلاقة الجاهزة أبداً هي عنوان المظهر اللائق، لذلك يحرص ألاّ يستخدمها غيره! ليذهب حرصه إلى الجحيم، فهو لن يراه أبداً بعد أن يغادر بيته، فليستمطر عليه كل اللعنات التي يعرفها، وليشتمه بكل الشتائم المخزونة في عقل شاعر هجّاء، وإن لم تبرّد قلبه هذه الشتائم القومية من عهد عاد، ليلحقها بالشتائم الأممية التي استوردها سندباد بري عجوز، عاصر ستالين، وروّجها بلغة الكادحين الجفاة الغلاظ، ليضرب عصفورين بحجر، أو يضرب رفاً من الطيور

بمحذاف واحد. ليوصمه صاحبه بكل النقائص، ولينزله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فماذا يهم المتشرد من ذاك كله؟ وإلى أين سينزله إذا كان هو أصلاً في أسفل الهاوية؟

أي تناقض هذا؟! فما دام عبد الله لا يهتم بكل شتائم الدنيا ونقائصها فهل سيهتم لو قبّحه أحدهم، أو تقزّز من لحيته الوسخة؟ بل من سينظر في خلقته حتى لو حلق بشفرات ناسيت، أو شفرات بيك، أو شفرات عاطلة مسروقة من مصانع الاتحاد السوفييتي، وهي ككل شيء في البلد المنهار غير مكتملة الصنع، لأنهم تعجلوا ليضموها الى أرقامهم المذهلة التي لم تمنع الانهيار المفاجىء، بل ساهمت فيه. ثم هل ستستحسنه إحداهن لو تكلين بكولونيا المستقرين، أم ستترامى عليه الفتيات كما يترامين على رجل حلق لحيته بمعجون هامول، أو تاباك؟

لن ينفعه شيء، وحتى لو وقعت في فخه غزالة فلن يمنحها بيتاً لتزيل وحدته، وستنمو لحيته، وبأسرع مما يتوقع، وسيظل متشرداً رث الهيئة، فعبد الله لن يكف عن أن يكون مجرد بروليتاري رث، بلحية، أو دون لحية، بل سيظل مجرد متشرد رث، فأي بروليتاريا تلك التي تضم المشردين على شاكلته؟!

ثم كيف يسمح عبد الله للبرجوازي الصغير الذي يسكنه أن يدغدغ أحلامه، ويتسلل الى قلبه مرة أخرى، بعد أن كشف مراوغته ونقده نقداً ذاتياً جاداً؟

لن يقع عبد الله في الفخ، وينشغل بهموم برجوازي صغير تافه ومراوغ.

وصل عبد الله الى يقين، بعد أن لاجت روحه كلوجة جسده النحيل الضامر في ثيابه الواسعة، إن أراد أن يعيش فلابد أن يبحث عن

سمة لعصره . . لابد أن يجد هدفاً له ، قضية يدافع عنها! فليبحث إذن عن سمة غير تلك التي ضاعت، فما ضاع لايمكن إعادته أو العثور عليه . . ليحاول على كل حال . . ليحاول أن يبحث عن سمة تدل على مستقبل لم يتحقق بعد، مازال جنيناً في طور التكوين يمكن أن يتحقق عاجلاً أو آجلاً . !

حقاً إن الأمر عسير ، لقد كان مرتاحاً ، وهو يعرف أن للعصر سمة ، وأنه من أنصارها ، أما الآن فقد قذف به إلى الأرض السابعة ، وهو غير مهيأ لقتل التنين الذي يمنع الماء عن المدينة التحت أرضية . . ، وبالتالي لن تلقي ابنة السلطان التفاحة عليه . . ما العمل إذن؟ إن السمة الوحيدة التي تناسبه هي تلك التي فقدت ، فهو يعرفها جيداً ، يعرفها كما يعرف الأجرب جربه ، والجائع جوعه ، والحصيني دجاجته القادمة ، والسجين سجانه ، والمومس زبونها الأثير ، والسلطان رعاياه . . .

كـان كل شيء واضـحـاً كـشـارع نيـفـسكي المسـتـقـيم، في بطرسـبـورغ، حـتى السـلاطين يشاركـونه في الاعتراف بتلك السمـة، أما الآن فقد ألقـوه إلى مـصـيـر مـجـهـول، وقـبع تحت شـجـيـرة الليل، في هـذا اليـوم القـارص، منتظراً أن يأتيـه السبع الأدرع. . !

حـتى لا يأكله السـبع الأدرع، عليه أن يخـرج من حيرته، ويختار حالاً السمة السابقة، ومادامت قـد ضـاعـت فليـبـحث عنهـا، بل ليـحـرض الناس للبـحث عنهـا، فـهي وحـدها التي تحقق آمـاله. . ! وتجعـله يشعـر، بالرغم من أن السـلاطين المتنكرين لا يرونه يغوص ككلب ضـال في مستنقع الحياة، أن ثمة حياة جميلة قادمة، إن لم يعشهـا هو سيعيشـهـا أمثاله من بعده! إن وعـد الكديش بالحشيش أفضل من انتظار غودو!

إن لم يسترجع عبد الله سمة العصر سيظل كلبـاً ضـالاً ومشـرداً كـذاك الذي لم يره السـلاطين

المتنكرين بأسمال لتفقد الرعية، ذاك يقين احتل قلبه . . فليتجه إلى الناس، لن يصل إلى الحل إلا بمساعدة أصحاب المصلحة الحقيقية، ليخرج إليهم، وينبههم إلى الخطر الذي يتهددهم بسبب ضياع سمة العصر . . . ! وليتعاونوا للتمسك بالسمة القديمة . . لم يفت الأوان بعد . . ولتنهار الدول الكرتونية، والسلطات الباغية فهذه كلها لاتمثل الاشتراكية، الاشتراكية التي هي ضرورة لعبد الله وأمثاله، والتي هي حرية حقيقية من قيود اللقمة والاستغلال وأولي الأمر!

خرج عبد الله من البيت، لن يضيع وقته، فالوقت له ثمنه الآن، دون أسف خبط عبد الله الباب خلفه بقوة، ولم ينظر إليه بحسرة من خسر باباً لن يفتح له أبداً، كما هي عادته!

نظر في وجوه المارة العابرين، لم يُلاحظ أنهم مهتمون بشيء! نظر إلى المحلات، المطاعم،

المقاهي . . الناس يمارسون أعمالهم العادية ، كأنهم لم يفقدوا شيئاً . . ! إنهم لايتصرفون كالضائعين! كيف يتصرفون كالضائعين وهم لايدركون ماحدث؟ كيف ينشغلون بمالا يعرفونه؟ ألم يحمّل نفسه واجب إطلاعهم على الخطر الذي يتهددهم؟

صعد عبد الله الى باص النقل الداخلي ، لم يقطع تذكرة ، ليس لأنه يحب مخالفة القوانين ، بل لأن لاتذاكر معه منذ زمن لم يعد يذكره . . !ولانقود لديه ليشتري تذاكر ، ولابد من الذهاب إلى مركز المدينة البعيد ليصل إلى جماهيره الذين سيحرضهم ، وهم لشدة حشدهم يدوسون على أقدام بعضهم بعضاً! وعبد الله لايخشى مفتشي الباصات ، بل لايخشى أي مفتشين أكانوا مع القانون أو ضده! الذين ضد القانون يفتشون خفية وهؤلاء لاتهمهم بطاقته ، فهم أنفسهم دون بطاقات ، وسيخيب أملهم ، وسيخجل منهم كما

خجل جحا من سارق منزله! أما العلانيون فهم تواقون ليخسر ماله وبطاقته أيضاً. . !فليصعدوا جميعاً إلى الباص، وليكتبوه عشرات بل مئات المخالفات فالعدد لن يغير من الأمر شيئاً، إذ لو ذبحوه فلن يجدوا معه مليماً واحداً! فإن أخذوا بطاقته الشخصية فسيكون ممتناً لهم لأنه سيخسر قيده، فعندما يراه شرطي على رصيف ما نائماً، فإنه سيطالبه بالبطاقة الشخصية، فإن وجدها، سيعتبره مواطناً حراً لاكلباً سائباً، فهو لايبالي بالوجبات الثلاث التي لايأكلها عبد الله، ولا بالبيت الذي لاوجود له، وسيوبخه ويمنعه من التصعلك والتشرد.

أما إن أخذوا بطاقته فسيقول للشرطي بثقة: أنا ياحضرة الشرطي لست مواطناً إذ لابطاقة لي، فتشني وتأكد من ذلك بنفسك، أنا كلب متشرد، وسيعوي ككلب هرم مصاب بالزكام، فيتأكد

الشرطي من شخصيته، ويتركه نائماً بسلام، وعندها سيكون قد تحرر حقاً من عالم المواطنين الصالحين، ودخل في عالم الكلاب الضالة الحرة التي تبول على النار، وتأتي برأس الشيخ بالقفة!

ولكن لماذا يشغل الآن نفسه بما هو أقل أهمية مثل برجوازي صغير لايفكر إلا بنفسه؟! فليترك همومه الشخصية، يعالجها فيما بعد، ولينشغل بالهم العام، بسمة العصر الضائعة!

زاحم عبد الله ودافع ليجد له محط رجل في الباص المزدحم حتى الاختناق، وقال في نفسه: إن الناس يزدادون في كل ثانية، والمدينة تتحول إلى غابة، ودون سمة العصر سيموتون كلهم جوعاً..!

حقاً إن المظاهر التي تتطلب تحقيق سمة العصر في ازدياد، فالفقراء يزدادون فقراً وعدداً باستمرار، وقريباً لن يكون للواحد محط رجل

لافي البـاص وحـده، بل على الأرض أيضـاً . . !
ولالقمة واحدة كاملة لكل فم . . !

سمْة العصر وحدها تستطيع أن تقسم محط الرجل ذاك، وتعطي لكل فم لقـمـة كـاملة على الأقل . . ! ياللهول، المجاعة قادمة، والغابة تزحف إلينا . . !

لقد عاد لاجترار أفكاره، حتى وهو بين الناس يجتر أفكاره، ألا يجرؤ على التحدث إليهم . . ؟!
إن عبد الله لايخشى شيئاً، وسيشرع في العمل فوراً، سيشرح لهم الوضع، ويعبئهم، ناشراً رسالته بينهم، وحين ينضجون كتفاحة حمراء، سيدعوهم لاستعادة سمة العصر . . !

باشر عبد الله العمل حالاً، فقال للرجل الذي يحاذيه :

- : لقد فقد العصر سمته . .

- : مـاذا؟! قـال الرجل بصـوت أقـرب إلى الصراخ، مستغرباً أن يتحدث إليه غريب .

قال عبد الله موضحاً، إذ ربما لم يكن الرجل مثقفاً:

- لم يعد الانتقال إلى الاشتراكية سمة العصر..!

تطلع الرجل إليه بدهشة، كاد أن يفتح فمه، ويقول شيئاً ما، لكنه أطبقه في اللحظة الأخيرة وآثر السلامة، إذ ربما اعتقد أنه مخبر يريد أن يوقعه في حبائله، ويدخله في حديث السياسة الذي لايدخله أحد ويخرج منه سالماً، وإن، صادف، وخرج سالماً سيكون «معثوثاً» كأنما«عضعضه» كلب مسعور، يظل يطارده حتى في أحلامه، إلى أن يلغ في دمائه ذات ليل!

أعطى الرجل ظهره لعبد الله جواباً شافياً، لكن عبد الله اللجوج لم يقنع، وبعجلة مذعورة فاج الرجل لنفسه طريقاً في الزحام وتوارى...!

قال عبد الله: إنه رجل خَرِع، يخشى على نفسه، ليجرب مع غيره! التفت إلى آخر، وقال له:

- : لقد فقد العصر سمته والناس لايهتمون بذلك، وكأن شيئاً لم يحدث!

- : هل حدث شيء فعلاً؟

- : أقول لك فقد العصر سمته فتسألني هل حدث شيء . . ؟ بالطبع الدنيا مقلوبة، والحرامية تصيح على أهل البيوت ولامن مجير . . . !

- : أيحدث هذا وأنا لاأدري . . ؟

- : وسيحدث ماهو أسوأ إن ظللت لاتدري . فلن تجد لقمة تأكلها، ولامسكناً تأوي إليه .

- : الآن لاأريد إلا مقعداً فارغاً!

- : هذه مسألة عارضة، لاتشغل نفسك بها . . المقعد الفارغ ليس مهماً، ولكن دون سمة العصر لن تجد محطاً لرجلك، لأن محط الرجل ستكون لمن يملك . . للأقوى . .

- : كانت الحال هكذا دائماً .

- : الأمر يختلف الآن . . لم تبق لنا قضية ندافع عنها . .

- : وهل كانت لنا من قبل . . ؟
- : بالطبع .
- : وأين هي؟
- : لقد ضاعت !
- : ومن ضيعها . . ؟
- : لقد ضيعناها جميعاً . .
- : أنا لم أضيع شيئاً . . !
- : لقد أضاعها كل من له مصلحة فيها .
- : أنا لامصلحة لي في أي قضية .
- : ركاب الباصات ، لاركاب السيارات ، كلهم أصحاب مصلحة فيها ، سواء قطعوا تذاكر أم لم يقطعوا تذاكر . .
- : هكذا . . . ؟
- : نعم ، كلنا أصحاب مصلحة وإلاّ سينكر الأب ابنه ، وتذهل المرضعة عما أرضعت . .
- : هذا يوم القيامة !

-: إنه يوم قيـامـتنا حـقـاً إن لـم نجـد سـمـة العصر، فلنحرض الناس، ولنبحث عنها جميعاً، إن كنا جمعاً سنجدها.

-: إنك تتـمـادى. . من يـسـمـعك يقـول إننا نتآمر فلا تردد الكلمات الكبيرة.

-: لاتخش شيئاً.

-: سيضيعنا هذا المجنون!

-: كفى خنوعاً. .

-: إياك والخطب. . ! لاتردد الشـعـارات، بعنا سكوتك ودعنا في همنا. .

-: لم يعد الصمت ممكناً. . !

-: لاتردد شعارات وإلا حطمت فاك. . ! بل سأحطمه إذا فهت بأي كلمة أخرى. .

-: ليس مـهـمـاً أن تحطم فـاهاً لم تعـد له وظيـفة، ولن تكون له وظيـفة حتى في المستقبل مادامت سمة العصر قد ضاعت. . ! سيكون فمي ضحية تافهة في سبيل سمة العصر العظيمة. . !

دفعه الرجل في صدره فارتطم بمن وراءه، وسادت ضجة وتدافع، وحدث هرج ومرج واختلاط، ولما كان هو السبب الظاهري لكل هذا التزاحم، وتلك الضجة فقد تناولته الأكف والشتائم، وعلكته علكاً وقذفته إلى آخر الباص، ممزق القميص، وبكدمتين قاتمتين، واحدة استقرت فوق خده الأيسر، وأخرى حول عينه اليمنى. . !

في أول موقف للباص تخلصوا منه، دفعوه دفعاً فكاد يقع على وجهه، لم يحقد عليهم، بل قال وقد أصبح فوق الرصيف:

- الأغبياء إنهم لايعرفون مايحدث، ويجهلون ماينتظرهم! لم يهتم عبد الله بما أصابه، إذ في سبيل قضية كبرى كقضيته، ماذا يعني أن يُضرب أو يلطم أو يمزق له رداء مهترىء أصلاً؟! إن قضيته تحتاج إلى تضحيات كبرى، وماناله ليس إلاّ غيض من فيض التضحيات التي لابد من تقديمها في النهاية. . !

المؤلم أن المناضلين يُقتلون دائماً بأيدي الذين يدافعون عنهم، هذا حظ الأنبياء، لكن الناس سيغيرون موقفهم منه حين يفهمونه . . وليت ذلك يحدث قبل فوات الأوان . . !

سار عبد الله الى أقرب مقهى . . جلس الى طاولة خالية . . فكر . . لو لم يكونوا يأخذون ثمن الطلبات سلفاً لطلب قهوة وباكيت دخان، وبعدها ليبلطوا البحر . . ! ليأخذوا ثيابه المهترئة، ليضربوه على قفاه إن لم تكفهم واجهته . . ! وبكل الأحوال كان سينال من الضرب لقاء أشياء تافهة أكثر بكثير مما ناله من أجل قضيته الكبرى . . ! لاشك أنهم جعلوا الدفع سلفاً حتى لايقبضوا ثمن المشروبات ضربات يوجهونها إلى أقفية أو وجوه بعض الزبائن المملقين أمثاله . . !

لو كانت عنده طاقية الإخفاء لذهب إلى أقرب محل للدخان وحمل باكيتاً واحداً من كل

نوع . . ومـاحـاجـتـه إلى ذلك . . ؟ ثم إن تنويع
الدخان ضار جداً . . ! سيأخذ عدة علب ونستون،
ونستون فقط . . ونستون عالم وحدها . . ونستون
هي الكمال بالمتعة . . !

- : أتطلب شيئاً . . ؟

تنبه عبد الله إلى أن النادل يقف أمامه منحنياً
كغصن مكسور قال له :

- : إنني انتظر أصحابي . . !

وحين لمح نظرة شك في عـينيـه ، أضـاف
ليطمئنه :

- : حين يأتون سأناديك فوراً . . !

لم تتغير نظرة الشك في عيني نادل المقهى . .
لكن المهم أنه أدار له قفاه في النهاية ، ومضى ، ولم
تعد نظراته الشكاكة مسلطة عليه . . !

وفكر عـبـد الله : لويعـرف هذا الأحـمق أي
قضيـة يحملها ، لو يعرف أنه يدافع عنه ، فـمـا هو

نصيب نادل من الدنيا، دون سمة العصر؟ لاشيء سوى فتات الموائد، وظهر منحنٍ كالقوس! لو كان يعرف هذا النادل قضيته أكان يقدم له كأساً من الشاي ولفافة تبغ؟! إنه بحاجة ماسة إلى لفافة تبغ، خاصة وهو لم يحصل على طاقية الإخفاء ليستحوذ على الكمال بالمتعة..! سيشحذ لفافة من أي زبون.. وجه المتشرد متين كالحذاء، فهو لا يخجل أبداً، مع أن عبد الله حييٌّ في حقيقة أمره، ووجهه كالعجين..!

فوق طاولة قريبة منه استقر باكيت وفوقه ولاّعة..! مازال ثمة أناس يضعون باكيتاً وولاعة فوق طاولة أمام كل الأنظار، مازالت الدنيا بخير، ولكن إن ضاعت سمة العصر نهائياً فلن يجد أحد لفافة تبغ لفمه المنتن.. إن فمه منتن حقاً، الفم الذي لا يأكل يظل منتناً، والباكيت والولاعة مازالا فوق الطاولة، إنها فرصته فليغتنمها قبل أن تضيع

سمـة العـصر نهـائيـاً، وعندها لن يرى أبداً باكـيتـاً متوَّجاً بولاعة فوق طاولة . . ! كان يلتهم الباكيت بنظراته . . غالب نفسه فغلبه النيكوتين المعشش في دمه، واحتمال ضياع الفرصة الى الأبد، تقدم من الطاولة، قال باستحياء: ممكن لفافة تبغ؟!

وامتدت يده قبل أن يأتيه الجواب الذي تريث بعض الوقت، ثم جاءه هزة رأس مختلسة.

أخذ لفافة تبغ بعجلة وأشعلها، أعاد الباكيت والولاعة إلى مكانهما، نظر إلى صاحبهما، قال: شكراً . . !

لم يرد الآخر، فافتقد عبد الله حتى هزة الرأس المختلسة.

عاد إلى طاولته، مجّ اللفافة بشراهة عدة مرات، حتى أحس أنه داخ، وكاد يفقد توازنه . . ! منذ زمن طويل لم يدخن لذلك أثرت عليه اللفافة تأثيراً مضاعفاً . . !

استرخى، ومن خلال دخان لفافته راح يراقب الطاولات دون اهتمام. . ! وصله صوت شجار يكاد ينشب على طاولة بعيدة عنه نسبياً، قال لنفسه: إنهم يكادون يتضاربون. . ! ولماذا؟ لاشك أن ذلك لايتعلق بسمة العصر، ولاشك أيضاً أن الأسباب تافهة. . ! إنهم لايدركون مايحدث، مشغولون بشجاراتهم عن الخطر الذي يتهددهم، الخطر الذي يسحق إنسانيتهم ويحولهم إلى حيوانات لاأمل لها في عدالة على الأرض، ولاأمل لها في جنة قد تأتي ولو بعد حين. . ! ليباشر هو دعوته إلى قضيته الكبرى ليحذرهم، لينبههم. . ! لن يبدأ تحريضه قبل أن ينهي سيجارته! مازال فيها عدة سحبات، لن يضيعها، فهو لايتمتع بالسيجارة وهو يتحدث، لايتمتع بها إلا وهو صامت يراقب دخانها، ويتأمل، أو وهو يكتب. . ! والكتابة عادة فقدها عبد الله حين فقد

سمة العصر . . إذ أصبحت معاناته أكبر من قدرته على التعبير .

سحب عبد الله آخر نفس من لفافته، ورماها بأسف، وقام مقترباً من الطاولة التي مازال الصراخ حولها على أشده، وهو ينذر بتحوله إلى تماسك بالأيدي . . ! قال عبد الله :

- : مهلاً أيها السادة . . لماذا تتشاجرون؟

التفتوا إليه جميعاً وجوهاً باغتها التدخل الفظ . . قال أحدهم :

- : وماشأنك أنت؟ !

قال عبد الله : كيف . . لي كل الشأن . . فأنتم تتشاجرون وقد ضاعت سمة العصر . . !

الجواب غير المتوقع فتح أفواههم دهشة، ولما استوعبوه انفجروا بضحك هز خواصرهم . . لقد وجدوا من يسخرون منه . . لاشك أن في الرجل غفلة، أو في عقله لوثة . . أو وسواس ما . . إنه مضحك على كل حال . . ! قال أحدهم :

-: بالله عليك؟! وكيف ضاعت؟!

قال آخر: ألم يجدوها بعد؟ كنت أظنهم قد وجدوها منذ وقت طويل؟!

تجاهل عبد الله السخرية في كلامهم، وقال:

-: لا.. ليس بعد..!

قال آخر: ابحث معهم عنها إذن، وستجدونها.

قال عبد الله: لنبحث عنها كلنا.

قال أحدهم: لا.. لاتزجنا في الأمر.

قال آخر: نحن لاشأن لنا..! ابحث عنها وإن وجدتها فأخبرنا..!

قال عبد الله: إنها سلبية منكم..

قال الآخر: ربما لم تضع بل سُرقت.. أأنت متأكد أنها ضاعت؟

قال آخر: إنه متأكد من ذلك ألم تسمعه يقول لك ذلك عدة مرات..

قال عبد الله : وما الفرق ضاعت أم سرقت، وأغلب الظن أنها سرقت، معكم حق في هذه . .

قال آخر : أرأيت نحن ذوو فائدة . . ولكن مايخشى منه أن تكون قد ضاعت إلى الأبد . .

قال عبد الله : لا . . لن يضيع حق وراءه مطالب . . ولاجمل وراءه صاحب، ولادجاجات وراها حصيني، ولاحملان وراها ذئب . .

- : ولارجل وراءه عقل . . أنت رجل ضائع ياهذا . .

- : إن لم نجد سمة العصر سنضيع كلنا . . !

- : كلنا . . ؟! تلك قضية خطيرة . . !

- : من الخير أن تجد سمة لنفسك . . !

قال عبد الله : ليست مهمة سمتي الشخصية، وحتى إن لم يكن لي سمة شخصية فلن يؤذي ذلك أحداً، ولن يضر أحداً، أما إن لم تكن للعصر سمة فإن البشر يضيعون . . لن يكون للفقراء مستقبل، وسينتظرون كالكديش ولن يأتي الحشيش أبداً .

-: لاتدس أنفك في مستقبل الفقراء وسيكون على أحسن حال. . !

-: أحولّت الناس إلى «كدش» أيها الخبيث؟

-: عليك ألا ترى مالايجب أن تراه فتظل بخير. . !

قال عبد الله: كيف. . أأقتل أعضائي. . ؟ أأحيّدها؟!

-: سنحيّدها لك إن لم تفعل ذلك بنفسك.

قال عبد الله: يطيب الموت في سبيل قضية كبرى. .

-: أنت لاتخشى شيئاً. . أراك بدأت تخطب. . ؟!

قال عبد الله: ماأخشاه هو ألاّ تكون للعصر سمة فقط فنذهب في الرجلين!

-: فلقتنا بعصرك وبسمته، فاخرج منه لنرتاح. . !

قـال عـبـد الله : أنا جـزء منه . . سـأقلق ضمائركم . .

التفتوا إلى بعضهم يتلاومون : الرجل مجنون جداً، أو عاقل جداً . .

قال عبد الله : إنكم كالذبائح تقادون إلى المذبح دون أن تدروا مايُراد بكم . .

- : ياضيعتكم . . ! هذا المغفل يسخر منكم، ويتجرأ على شتمكم . .

أمسكوا به، جرجروه، وقذفوا به خارج المقهى . . قال أحدهم : اذهب وابحث عن سمة عصرك بعيداً عنا .

قال عبد الله لنفسه، وهو يبتعد عن المقهى : هذا أيضاً هيَّن في سبيل القضية الكبرى . . ! وهؤلاء لايفقهون شيئاً، ولايدركون المصير الذي سيؤلون إليه!

فجأة أحس عبد الله بالتعب، عرّج على

حديقة قريبة، اختار فيها بقعة نائية عن الناس، لن يعظ أحداً، ولن يحرض أحداً الآن، سيستريح من عناء ماالحق به حتى الآن من ضرب في سبيل قضيته، وبعد ذلك سيواصل دعوته للبحث عن سمة العصر المفقودة. . !

رمى حذاءه المهترىء، وتمدد على العشب الطري الرطيب، فشعر بالانتعاش والراحة، بالرغم من وخزات ألم عديدة باح بها جسده الذي أوسع ضرباً اليوم!

تمنى أن يغمض عينيه فيجد نفسه في روضة، تتوسطها بحيرة بزرقة السماء، تأتيها حوريات عين فيتعرين كالأقمار، ويلجن الماء بصخب. . وهو الرجل الوحيد في الروض. . !

تلقى عبد الله وخزاً ظنه ترجيعات للضرب الذي تلقاه، لكن الوخز تكرر، وبقسوة أكبر، ورأى فوقه شبحاً طويلاً اختلط رأسه في شعاعات

الشمس، لعله مارد مرصود له كما في الخرافات، وقد أدرك ضيعته وقهره وجوعه فجاء لنجدته، لكن المارد المنقذ تحول إلى حارس الحديقة الذي مازال يندسه بطرف حذائه، ماضايقه حقاً هو إحساسه بالخيبة من أن المارد لم يكن مارداً، أما جلافة الحارس فقد اعتادها، وقال عبد الله في نفسه: حتى أنت؟! أنت المضيّع مثلي، فمن دون سمة العصر ستظل مجرد حارس حديقة.

قال الحارس: أأنت نائم؟

قال عبد الله: لا . . لم أنم بعد . . !

قال الحارس: ماشاء الله . . تريد أن تنام أيضاً . . ؟! النوم على العشب ممنوع، ثم إنك بهذه الهيئة، وبرائحة أقدامك التي تقطع الأنف ستجعل أي سائح عابر يحمل انطباعاً سيئاً عن بلادنا . . !

- : هل سيقترب مني السائح ليشم رائحة أقدامي؟ ثم لماذا تنشغل بهذه الهموم البرجوازية

وأنت بروليتاري رث؟ فليحمل السائح ماشاء من انطباعات. . ماذا يعنينا من انطباعاته إذا كان العصر قد فقد سمته؟؟!

-: أتخرّف أنت؟! أي عصر هذا الذي تتحدث عنه، فنحن لم نصلّ الظهر بعد؟!

-: ها. . أنت من هؤلاء إذن. . لن تهمك سمة العصر، فأنت ستكتفي بجنة عدن!

وحدث عبد الله نفسه: ماجدوى الكلام مع البهائم؟! لن يفهمه أحد أبداً، حتى لو أصبحت ذرات البحر كلها كلمات في فمه، وهو كيد واحدة لاتملك أن تصفق. . ! أييأس هكذا من أول الطريق؟ لا. . لاحياة مع اليأس. . ماذا؟ إنه يشد أزر نفسه بالشعارات. . لاجدوى مما يفعل. . لقد ضاع وانتهى الأمر، ضاع كما ضاع نادل المقهى المكسور الظهر، وحارس الحديقة الفظ، وركاب الباصات المزحومين كالنفايات، ورواد المقهى

المتشاجرين كالكلاب الضالة حول عظمة، لا أمل لعبد الله وصحبه في هذه الدنيا، إذ أن أمله في استرداد سمة العصر كأمل إبليس في الجنة!

قال له الحارس: لقد نبهتك ألاّ تنام أو تجلس فوق العشب، ولكن لم تبرح مكانك.. أتعاندني..؟

قال عبد الله غاضباً: سأنام في جهنم، فاصمت..!

لبس حذاءه، ترك الحديقة، سار في الشوارع على غير هدى.. أيستسلم؟ أيخضع لابتزاز البرجوازي الصغير القصير النفس الملازم له؟ لا..! لن ييأس عبد الله، سيكون دليلهم الى سمة العصر، سيوقظ النائمين فيرون سمة العصر راكضة في الشوارع المضاءة بالفجر الندي.

وعبد الله المتعب كجواد هرم، والذي يكاد ينهار ككتلة رمل هشة، والذي أصبح يرى الناس

كالأشباح لم يغادره يقينه منسلاً كلص، فهو يعرف أن الطريق طويل طويل كدهاليز الخرافات التي يتعثر فيها فتمنحه أملاً، ويوغل عبد الله في سرداب الخرافات، فتلتقط عيناه نمراً ورديا وعجوزاً لاأنياب له، لايلبث أن يتوارى في صحراء حارة كالرحم، لاأمان فيها لمستجير . . !
فيظهر على شاشتي عينيه، الأعور الدجال، لم يكن وحيداً، لم يكن أعور واحداً، بل كانوا عوران دجالين كثر، حتى الذين صاحوا بالأعور الدجال، وتصدوا له، وحاربوه كانوا عوران ودجالين أيضاً، فقد أتاحوا ليأجوج ومأجوج القادمين من جزائر واق الواق، ومكامن بيضة الرخ أن يلحسوا جدار الصين أو جدار الروسيا لافرق، وأن يستوطنوا في البلاد التي تجري من تحتها الأنهار، ويهزوا جذوع النخل فتساقط عليهم رطباً جنياً . . !

وانتظر عبد الله أن يرى المخلص، انتظره أن

يأتي ليكنس كل هذا الوخم المتراكم كما كنس المسيح معبد الرب.

وعبثاً انتظر.. لم يظهر المخلص مع أن الأرض والحجارة الأنهار والبحيرات، الورود والصخور، طير السماء وزواحف الأرض، الدماء المهدورة، الرمال المستباحة كلها تصرخ، تضج منادية: هذا عدوكم فأدركوه..!

خلت عينا عبد الله كساحة المعبد التي نظفها المسيح، لحظة قصيرة فقط، ثم عبرهما السندباد البحري، دون أن يلوح بيديه مودعاً، فقال له عبد الله: أعرف أنك لن تصطحبني معك، لكنني تفوّقت عليك، ورأيتُ أكثر مما رأيت...!

وقبل أن ينقل السندباد خطوته الأخيرة من عينيه رأى قصراً عالياً شامخاً في الهواء، إنه يعرفه تماماً، قصر السحاب حيث تسكن الجنيات السبع بنات ملك الجان.. كيف فات عبد الله أن

يخاويهن كحسن البصري، ويلجأ إليهن ليساعدنه في استعادة سمة العصر؟ ألم يكن حسن البصري مثله ضائعاً ومطارداً وعاجزاً فأمنّه من جوع ومن خوف، فطاب نفساً وقر عيناً، ثم زوجنه من ابنة ملك الجان التي جاءته حمامة طائرة من جزائر الواق واق!

إنهن طريقك الى سمة العصر ياعبد الله، إنهن يملكن الجيوش والأعوان والمردة والسحرة واللآليء والجواهر والذهب والأحجار الكريمة فمن سيقف في طريقهن..؟ وبعد تحقيق سمة العصر ربما منحنه زوجة تلبس ثوب ريش..! لن يتركهن يغبن عن عينيه.. سيذهب إليهن.. وفجأة اكتظت الصحراء التي حول القصر بأشجار طويلة وارفة، كأنما انبثقت من الأرض، أو نزلت من السماء، وتفجّرت الصحراء أنهاراً وينابيع، وأخذت الأرض زخرفها وروداً حمراء وصفراء وبيضاء.

وبنفسجية، تنبثق من الرمال، وتتفتح دفعة واحدة كالجراح. . ! وحومًت طيور في سماء الروض، وصدحت بألحان عذبة. . ومن الأفق البعيد جاءت حمامات بيضاء حطت عند بحيرة بلون السماء، وبدأت الحمامات تنزع ثياب الريش، فإذا هي حوريات بلون الحليب، عاريات كالأقمار. . وعبد الله هو الرجل الوحيد. . !

وكبرت ابنة ملك الجان في عينيه، كأنما اقتربت منه، لو مد يده سيمسكها، وكانت عريانة، تلصف كسمكة تستحمّ بشعاع شمس الظهيرة. . . طاش صوابه، وبدأ ينزع ثيابه. . سيدخل الروض. . هذا مغتسل بارد! الروض له!

الناس الذين لم يهتموا بسمة العصر، تزاحموا على عبد الله، بعد أن وجدها، وهاهو ذا قد أكمل نزع آخر قطعة تستر جسده ليذهب إلى سمته عارياً كما خلقه ربه، وغدا عبد الله عارياً

وسـاطعـاً كـالقـمـر . . ! عـدة وثبـات ويصل إلى الروض . . ! لكن العوران الدجالين أصبحوا يقفون بينه وبين الروض، ويحجبونه عنه، يصرخون به حتى لايلجه . . !

لا . . ! لن يمنعه الفانون من الوصول إلى روضه . . لن يوقفه أحد . . ! واندفع عبد الله عارياً كالقمر يشق طريقه إلى البحيرة التي ترتمي فيها الحوريات بصخب . . . !



عبد الله يبحث عن ثلاث سمكات

فيما كان الجنود المتقهقرون على طول الطرق الصحراوية بين الكويت والبصرة يبحثون في عراء الصحراء الساطع كالشمس اللاهبة عن مأمن من الموت، كان عبد الله مشغولاً بالبحث عن ثلاث سمكات بحجم الكف.. !

الجنود المتقهقرون خلفوا الجثث لتنشتل غابة من الشجر المحروق في صحراء جرداء لم تتبيّن نبتة من قبل!

حينما تبيّن عبد الله أن القدر الضروري لإشباع قط أسود نهم، لايتجاوز حجم الكف،

حدد هدفه بدقة: ثلاث سمكات بحجم الكف لثلاث وجبات لقط أسود لاشية فيه. . . !

وهذا التحديد الصارم كجزمة العسكري، لاينفي مرونة عبد الله، فهو إنما فعل ذلك ليعرف هدفه بدقة، وليسهل الأمر على نفسه عند البحث، وإلاّ فإن الزيادة أو النقصان قليلاً لن يغيّر من طبيعة الهدف.

شرع عبد الله بالبحث عن سمكاته الثلاث صباحاً، وانتصف النهار أو كاد دون أن يحظى برؤية سمكاته المتلألئة ككنز سقطت عليه الشمس بعد طول اختباء رطب، عند ذاك أدرك عبد الله أنه خدع نفسه، فالحصول على السمكات ليس أسهل من الحصول على مصباح علاء الدين أو بساطه السحري، أو خاتم شبيك لبيك. . ! فمن سيمنح عبد الله ثلاث سمكات بحجم الكف وهو يطلبها بيدين فارغتين كيدي مصلٍّ مشرعتين للدعاء،

وبجيب خال من رنين النقود كجيب صياد عجوز ممزق الشباك.

ومادامت السماء لاتمطر أسماكاً، والبحر نفسه لايمنح الجوعى العراة الأيدي أسماكه، أو يقذف بها إلى الرمال.. فكيف سيأتي عبد الله بسمكاته الثلاث؟!

دار عبد الله على المطاعم، وقد فكّر أن يتسوّل السمكات، ولهيئته الرثة مع أنها سمة الشحاذ الوحيدة التي يملكها لم يجرؤ على الدخول الى المطاعم، والاستفسار عما إذا كان فيها أسماك، بل كان يدس رأسه من المدخل، ويتشمّم الهواء الخارج منها، فلا يشم إلا رائحة راكدة حارة ثقيلة مختلطة لا اسم لها ولاطعم..!

لقد أذَّى استحياء العذراوات صفاقة الشحاذ المفقودة فيه، فأقنع نفسه أن طريقته تلك غير مجدية، وأن من يريد الحصول على حاجته عليه أن

يقدم، ولا يتراجع، فجرأ نفسه بذلك على دخول بعض المطاعم والسؤال فيها عن سمك طازج . . ! وكان يطلب السمك الطازج لقناعته أن هذا أقل ثمناً، فهو ليس سارقاً ليسرق جملاً، أو سمكاً مشوياً، ولا عاشقاً ليعشق قمراً، بل هو شحاذ والشحاذ يطلب سمكاً طازجاً لا مشوياً . . !

إلا أن عبد الله لم يحصل إلاّ على إجابات ساخرة، سببها هيئته الزرية، ولو كان له غير تلك الهيئة لاعتقدوا أنه طلبها لسبب وجيه . . ! وقد قال له أحدهم: السمك في البحر كالهم على القلب، وما عليك إلاّ أن ترمي الشباك فتخرج لك بما تشاء منها . . !

وقد أدرك عبد الله أنّ في سخرية أصحاب المطاعم بعضاً من الحق، إذ يفترض أن يسأل عن السمك الطازج في المسامك الخاصة، وليس في المطاعم، فمن أين يدركون أن عبد الله غريب، وأنه لم ير محلاً من هذا النوع على كثرة تشرده في هذه

المدينة الغريبة . . . ! لذلك لم يكن أمامه إلا المطاعم التي داوم على سؤالها متطلعاً في الوجوه ببلاهة وحيرة أهل الكهف، وقد خرجوا بورقهم إلى المدينة. وعندما يئس أو كاد أنقذه أحدهم من حيرته وتطلعه الأبله، عندما قال له:

- سوق السمك يقع بالقرب من الميناء، وهو السوق الوحيد لبيع الأسماك في المدينة. . اذهب إلى هناك وستحصل على ماتشاء من السمك، وليس على ثلاث سمكات فقط . . !

لم يضيّع عبد الله وقته، بل سار باتجاه سوق السمك بحماسة، وكأنما قد حصل للتو على سمكاته المتلألئة كالكنز، بل لقد جرى أحياناً جرياً، حينما عاد صوت فراس يتردد في داخله بضجيج مكتوم:

- : بابا ماما مريضة. . ! ارسل لنا ولو قليلاً من النقود. . !

* * *

كالكابوس، كما في فيلم امريكي، فجأة حطت الطائرات العملاقة في أرض المطار، ودلقت أحشاءها دبابات ومدرعات ومصفحات ومدافع وجنوداً . . ! وقبالة الموانىء رست سفن عملاقة كالمدن، ومن جوفها تدفقت أفواج من السفن الوليدة تحمل الدبابات والمصفحات والجنود تقذفهم إلى الرمال فتؤمن أهل البيت من جوع ومن خوف . . !

وفيما كانت الطائرات والسفن تقذف الجنود والمدرعات على صحراء تستحم بجحيم الشمس كان عبد الله يستحم بالخوف، وينام على مسغبة في العراء، في بلد لاتصله رياح الخليج، وقد رأى الطائرات العملاقة والسفن التي بحجم المدن، واكتفى بآهة حزينة وحارة كادت تقتلع أحشاءه!

نفذ عبد الله وأولاده من خرة الإبرة جوعاً، فضاقت به الأرض كأنما هي جوف أفعى، فشد

الرحال الى بلد بعيد بعيد . . ومنذ وصل إلى البلد البعيد لم يضيّع وقته . . شد على قروشه القليلة بيد حديدية ، وبدأ البحث عن عمل . . كانت الآمال كبيرة في البدء إلاّ أنها بدأت تذوي رويداً رويداً كنبتة قطعت عنها المياه . . !

صرف عبد الله آخر قروشه البيضاء ، ودخل في ظلام البطالة ، فما زال العمل سراباً أو كالسراب . . التجأ إلى الأرصفة والمحطات والحدائق العامة يفترش الأرض ، ويلتحف السماء . . والأمل بالعمل ينأى ويتلاشى . . والجوع ينشب أظفاره فيه ، وفي أجساد أولاده البعيدين . . البعيدين . .

* * *

فيما كانت جيوش الصحراء تهاجم الغرباء وتكاد تبيدهم عن بكرة أبيهم ، كان عبد الله قد انهزم هزيمة ساحقة على يد البطالة الثقيلة كقبضة طاغية .

أعلنت الصحف والإذاعات المرئية والمسموعة المخدوعة بحماسها أن رياح الصحراء الأبية كسكانها كبدوها تقتلع خيام الجنود الغرباء، والرمال تعميهم، وتمنعهم من أن يتبينوا رؤوسهم من أرجلهم، وأن الصيّهْد يشويهم كالعصافير، والصحراء تحشد عقاربها وأفاعيها وزواحفها كأنما هو يوم حشرها لتهاجم الغرباء، وتنفث سمومها فيهم..!

وأضافت تلك الصحف والإذاعات أن الجنود الغرباء الذين جاؤوا ليؤمنوا أهل البيت من جوع ومن خوف سيهزمون ويولون الدبر، دون حرب حقيقية، إذ ربما أبادتهم جيوش الصحراء بقضهم وقضيضهم!

وأكدت أن هذا ليس رجماً بالغيب ولا أمانيّ العاجزين، بل هو واقع يحدث أمام العين كل دقيقة.

تلقفّت الأوساط الشعبية تلك الإيحاءات فحولتها إلى يقين له صلابة رؤيتها للتيس الحلاب، والعنز العجماء التي دخلت في جنس الحيوان الناطق، وسيدنا الخضر، والأولياء الصالحين الذين صرحوا بوضوح لاتدخله ظلمة الشك: إن الطير الأبابيل قادمة لترميهم بحجارة من سجيل، فتجعلهم كعصف مأكول. . !

وتبنّت الصحف والإذاعات المرئية والمسموعة، مستقلة ومملوكة، خاصة وعامة يقين الجماهير الصلب كظهر السلحفاة، وأعلنت السر الخفي الذي يجعل المتحمسين لطرد الغرباء لايهاجمونهم فلماذا يفعلون إذا كانت الصحراء وجنودها ستتكفل بهم؟! ولماذا يتدخلون، فيمنعون اكتمال المعجزة التي تنطبخ بغامض علم الله. . !

كان عبد الله قد انهزم هزيمة حاسمة على يد البطالة كهزيمة الثعلب أمام السلوقي الذي استنجدبه

الديك!. وتحول عبد الله الى متشرد، فراح ككلب ضال يبحث في المزابل عن لقمة تقيه شر ذلك الكافر. . !

قبل ذلك كان عبد الله قد أخفى وضعه عن زوجه وأطفاله، بل أغدق عليهم الوعود، وأملهم بلعطة من نهر الذهب والفضة والدولار والبترول. . فكيف يصارحهم بوضعه الذي يشبه وضع جندي في عصر فريد زمانه!

كتب لهم ذلك في رسالة أرسلها إليهم، وجعل عنوانه البريد شأن من لامأوى ولاعناوين لهم!

وكان عبد الله يسمع ويرى كل مايحدث، لكنه في شغل شاغل، فمشكلته تخنقه. . ! ثم هل يحق أصلاً لكلب ضال شريد أن يهتم بالحروب أو المعجزات، أو العروش المنهارة، أو الباحثين عن عروش وأمجاد؟ كل مايحدث باطل، ولاعلاقة لعبد الله به، مع أن كل شيء يتعمَّد باسمه. . !

* * *

وفيما كان عبد الله يرتع في نعيم البطالة استدعت الشركات العالمية عمالها الذين سرحتهم بسبب الكساد . . ! ذلك أن الجنود الذين أرسلتهم الى الصحراء سيحولون المدن إلى أنقاض ، ثم لابد من إعادة تعميرها من جديد . . ! وتلك الشركات ، لم تكن تبالي بتصريحات سيدنا الخضر ، وأوليائنا الصالحين ، ولاتؤمن بمعجزات التيس الحلاب ، ولا العنز العجماء . . . فهي واثقة من أن لاجيوش الصحراء ، ولا الجيوش الحقيقية بقادرة على زحزحة جنودها عن تنفيذ أهدافهم المرسومة بدقة . . !

* * *

فيما كانت الطائرات تهدم المدن فوق رؤوس ساكنيها ، وتشرد الآلاف وتجوعهم أطفالاً ورجالاً ونساءً ، وصلت رسالة إلى عبد الله من أهله ، كتبها ابنه الذي لايتجاوز العاشرة من عمره ، ولأنه كذلك ، قال بصراحة الأطفال الجارحة :

- : بابا! ماما مريضة . . أرسل لنا ولو قليلاً من النقود . . ! ويومها حاص عبد الله . . حاص الكلب الضال المتشرد، وركض مثل الأبله في الشوارع، لم يترك محلاً إلا ودخله راجياً والدمعة في عينيه أن يشتروا عرقه بدريهمات قليلة . . لكنه أنهك ولم يجد مشترياً . . !

وتحدرت من عينيه دمعتان انحبستا طويلاً، ثم أطلق العنان لدموعه، وبكى أخيراً، بكى بعجز وحرقة ومرارة . . !

إنه غريب ووحيد، لايجد من يبثه همومه وشكواه في صحراء الغربة، ولا من يعرفه فيساعده . . إنه في غربته، مجرد متشرد، والمتشرد ليس كائناً بشرياً مملوءاً طموحاً وأملاً، وينوء بحمل كالجبال، بل هو كلب ضال . . !

تجمّدت عينا الكلب الضال، عينان صغيرتان كابيتان كعيني سمكة كثيفتي الغشاء، تجمدتا في

نظرة لامكان لها . . ! عندها رآه . . ! كان يقترب منه على فرس هزيلة كعود الطرفاء، كثعلب طاردته الكلاب طويلاً، فسبّ ذيله الذي علق بين قدميه، يمنعه من الهروب . .

قال عبد الله : أما زلت حياً ياسيدي . . ؟!

قال : أنا خالد ياعبد الله . . ! أنسيت أن جسدي بلا روح، إن روحي لاتسكن جسدي، فأنا وزعتها في قلب فيل الغابة، وسمكة البحر، وهدهد السماء، ونعامة الصحراء . .

- : لكن مجزرتك انتهت ياسيدي . . !

- : أنت لاتختار ألفاظك . . إنها ملحمتي . .

- : ملحمتك المستمرة . . !

- : مازال لدي أسلحة لم استخدمها بعد . .

- : وما تنتظر ياسيدي . . ؟

- : أنت تقلقني ياعبد الله، فأنت لاتدبر نفسك، كدجاجة عمياء تلتقط الحب تحت قدمي الثعلب . .

-: أنت أكبر مني بيوم، وأعرف مني بسنة..!

-: هيِّىء نفسك للجهاد المقدس..!

-: لسنا معاً ياسيدي..! منذ خلق الله الخلق، وأنا أركب طريق الصدمارد، وأنت تركب طريق السلامة..!

-: ستخسر ياعبد الله..!

-: أنا خاسر في الحالين ياسيدي..! لقد خسرت منذ اللحظة التي لم أستطع أن أشدك فيها من أذنك كما يشد الأب ابنه الضال..

-: سأحاسبك ياعبد الله عندما انتهي من محنتي كما حاسب الثعلب ديكاً استجار بكلب!

-: سأسحلك في الشوارع، ياسيدي، كما تسحل الجيفة!

استشاط غضباً، وانتفخ كبالون على وشك الانفجار، ونفرت عروقه الزرقاء كأغصان شجرة

ميتة، وتكدرت نجومه التي اختطفها في غفلة من السماء. . لكز فرسه وابتعد، وظل عبد الله يرى شبح فرسه الهزيل كعود الطرفاء الى أن تلاشى كالطيف تاركاً إياه يواجه كلمات ابنه الحارة المستغيثة العارية كشجرة خريفية، تدعوه إلى الجهاد المقدس:

-: بابا! ماما مريضة. . ارسل لنا ولو قليلاً من النقود. . !

* * *

في الوقت الذي بكى فيه العالم المتحضر لمصير البطات البيضاء الهاربة من جحيم المجزرة والتلوث الذي دمّر مأواها الطبيعي، وفي نواحهم ذاك وجدوا الوقت ليؤكدوا أن الجمل العربي لن ينقرض، وأن مأواه الطبيعي لن يُدمر بالتلوث، في ذلك الوقت كان عبد الله قد شد الرحال بحثاً عن مخرج لأزمته، وقد أسعفته الذاكرة المشدودة إلى

الماضي، الملتهبة بالحرائق، والمدن المستباحة، وأشباح الموتى والجوعى والطغاة، وصور الكلاب الضالة، بالأحلام ليتمسك منها بأمل أخير كآدم وهو يخصف على نفسه من ورق الجنة، لينجد ابنه الذي يستصرخه:

-: بابا! ماما مريضة.. أرسل لنا ولو قليلاً من النقود..!

مازال صوت ابنه يتردد في داخله، عندما جاءه شيخ مسن، تحيط به هالة نورانية، وكان أبيض اللحية أبيض الثياب كالثلج، وقال له: اتبعني ياعبد الله..!

-: إلى أين ياشيخي؟

-: لتأخذ وديعتك..!

-: أي وديعة ياشيخي؟ فأنا لاود لي في الأرض، ولانجمة في السماء..

-: مصباح علاء الدين..!

-: ألم يأخذه علاء الدين من قبل؟

-: عاد إلى حيث يجب أن يعود، وقد رُصد باسمك..!

أمسك الشيخ بيد عبد الله وخطا ثلاث خطوات، عدَّهن عبد الله. فإذا هما أمام باب المغارة، كان الباب مفتوحاً حتى قبل أن يقرأ الشيخ طلاسمه.. فدخلا، كانت المغارة رطبة كالقبر، وخالية من التماع المصباح الذهبي... قال الشيخ:

-: لا حظ لك ياولدي في المصباح..

-: أسرق ياشيخي..؟

-: بل سبقنا إليه عبد الله آخر..

-: فما العمل ياشيخي..؟

-: لاتقنط من رحمة الله.. سنأتي بخاتم شبيك لبيك..

أمسك الشيخ يد عبد الله، وخطا ثلاث خطوات فإذا هما أمام مغارة ثانية كالأولى كان بابها

مفتوحاً . . فلم يدخل الشيخ وقال له : لقد سبقنا إلى هنا أيضاً فعبيد الله كثر ، ودعنا لانضيّع الوقت ، ولنلحق بالبساط السحري قبل أن يسبقنا إليه أحد .

أمسك الشيخ يد عبد الله ، فارتجف كشجرة هزتها الريح فزعاً من أن يسبق مرة أخرى ، ولم يطل فزعه . . ثلاث خطوات فإذا هما أمام المغارة الثالثة المفتوحة الباب . . فقال الشيخ :

- : لاحظ لك ياولدي . . لقد أصبح عبيد الله لاعدّ لهم . . !

اختفى الشيخ كما ظهر ، وظل عبد الله يقلب وجهه في السماء دون جدوى ، فقال لنفسه : إنك منحوس كفلسطيني وثق بمحادثات أوسلو !

ولأن عبد الله لاييأس ، فقد أمل بمعجزة جديدة ، وقد حدثت المعجزة بالفعل ، حدثت بعد أن كانت الـ ـدلات البيضاء الهاربة من الجحيم قد

اختفت نهائياً، والجمل العربي استقر في صحرائه غير الملوثة، والجنود المتقهقرون يزرعون الصحراء بغابة من أشلاء جثثهم، والموت يلتصق بهم كجلودهم . . كان الحلم المعجزة الذي اهتدى إليه عبد الله، حلماً واقعياً يمكن القبض عليه كالقبض على حفنة تراب، فهو لايحتاج إلي فك رصد، ولالشيخ أبيض كالثلج، فكل العناصر التي يتألف منها الحلم واقعية، يستطيع أن يجمعها عبد الله بنفسه فيحصل على كنز القط الأسود في المغارة المهجورة! كل مايلزمه للحصول على الكنز هو ثلاث سمكات تحضّرهن عجوز طيبة فيأتي قط أسود، ويتخطفهن واحدة إثر أخرى، في كل يوم سمكة . . وفي اليوم الثالث تتبع العجوز القط لتستخلص منه السمكة الثالثة والأخيرة، فيقودها إلى مغارة مهجورة ترى فيها سمكاتها الثلاث فوق تل من الذهب واللآلىء!

الأمر سهل إذن، ولن يخطر على بال أحد من عبيد الله الآخرين، وماعلى عبد الله إلا أن يحصل أولاً على ثلاث سمكات بحجم الكف تكفي لثلاث وجبات لقط أسود لاشية فيه . . !

* * *

في مشي أقرب إلى الهرولة كان عبد الله يغذ السير ليصل إلى سوق الأسماك الواقع بالقرب من الميناء . . ! لم يكن عبد الله يحسّ بما حوله، أو يلتفت إلى شيء . . ! يصطدم بالآخرين فلا يحس بهم، كأنما هم أشباح ينفذ من خلالهم، لذلك لم يكلف نفسه عناء الاعتذار الفارغ من المعنى، والمعطل له، كما لم يحفل بالنظرات الحاقدة التي تنصبّ عليه كالسيوف القاطعة، ولا المسبّات التي تلتقط أذنه روائحها الكريهة، دون صوت . . ! وحتى ضجيج السيارات وأبواقها تأتيه كأنما من عالم آخر لاعلاقة له به . . ! فالمهم لديه هو أن يصل

إلى سوق السمك وهناك سيجد أكواماً منها، كبيرة وصغيرة، حمراء وصفراء، رمادية وسوداء، رصاصية وخضراء أو دون لون محدد. . وستكون طازجة بشفاهها الوردية كأنما خرجت من البحر لتوها في شباك صياد عجوز، تقول له: أعدني إلى البحر وسأغنيك. . ! ولكن يديه المشققتين، وبقية عمره الهزيلة لايصدقان أن السمكة يمكن أن تعود في إهاب بشري لتهدي الصياد المحتضر فتاة جميلة، تعيد له صباه، وخُرجاً من الذهب. . ! إنه حلم غير مضمون كحلم عبد الله الواقعي الذي لا احتمالات فيه إن نفذ بدقة. .

لن يهتم عبد الله بالنوع، فلتكن من نوع السردين، أو الطون، أو الجمبري، أو البوري، أو حمائم البحر، أو ثعابينه أو نجومه. . ليس هذا هو المهم، فهل سيفرق القط الأسود بينها؟ وهل من الواجب تدليله وأخذ رأيه أيها يفضل؟ ثم إن

الحكاية لاتشير إلى نوع السمك ولاتحدده، المهم أن تكون السمكات بحجم الكف. . !

وعاوده القلق لخلو جيبه من النقود، فهو لن يستجدي السمكات كأي شحاذ فقير ذليل، إنه غني. . ! غني بالكنز الذي سيقبض عليه بيد من حديد، كما يقبض الطاغية على معارضه.

لماذا يقلقه هذا الأمر البسيط، سيشارك أحدهم في كنزه. . ! كيف؟ أيتخلى عن نصف الكنز من أجل ثلاث سمكات؟ لابد من السمكات على كل حال، فدونهن لن يحصل على الكنز، ولكنه لن يشارك أحداً فيه، يمكنه فقط أن يمنح صاحب السمكات نقطة من بحر كنزه. . ! عشر الكنز مثلاً. . ! لا. . هذا كثير جداً، سيمنحه واحد بالمائة منه. . ! لا. . لا. . ! لماذا هذا الإسراف؟ أثلاث سمكات تستأهل كل هذا؟ فإن كان لابد أن يكون سخياً معه فليعده بمبلغ مرقوم، عشرة دنانير مثلاً. . ! ليكن هذا معقول. .

على كل حال سيستعرض وجوه الباعة أولاً ،
فإذا ماوجد وجهاً سمحاً ودوداً عرض عليه
مشروعه ، سيقول له : ثلاث سمكات بحجم
الكف ، وسأمنحك عشرة دنانير من الكنز الذي
سأحصل عليه قريباً . . ! لا . . ! لن يشير الى الكنز
فهذا جنون منه . . ! كيف يفضح سره بنفسه؟ ! فإما
أن يكون البائع مخبراً فيخبر السلطات الحكومية ،
وإمّا أن يكون طماعاً فيضغط عليه ليشاركه في
النصف ، بل ربما كان مجرماً وله عصابة ، وإن لم
يكن ، فإن سماعه بوجود الكنز ، سيحوله إلى
مجرم يشتري عصابة ويستولي على الكنز ! كأنك
لم تستفد شيئاً من الأفلام التي تتحدث عن
الباحثين عن الذهب أو الكنوز ، من لم يكن مجرماً
منهم يحوله الكنز الى مجرم . . !

وربما كان رجلاً عاقلاً . . ! عندها سيعتبره
مجنوناً ، ولن يصدقه . . !

لن يذكر الكنز أمام أحد أبداً ، سيقول للبائع :

امنحني ثلاث سمكات وغداً سأعطيك مقابلهن عشرة دنانير . . ! هذا معقول . . ! وربما منحه البائع السمكات لوجه الله فهي لن تؤثر عليه مادام على بسطته أطنان منها ! فإن لم يكن سمحاً ربما فكر أن يغامر بالسمكات الثلاث من أجل عشرة دنانير محتملة . . . !

حسناً . . ! ليفرض عبد الله أن الرجل لم يعطه السمكات بالرغم من ذاك كله فماذا سيفعل؟

سينبش بقايا سوق الأمس إذ ربما عثر فيها على سمكاته المطلوبة إذ كثيراً مايرمون في آخر النهار مالم يُبع وحتى من أحجام أكبر من حجم سمكاته . . !

حسناً . . ! فإن لم يجد ضالته هناك . . ما العمل؟ ! ولماذا كل هذه الحيرة؟ ليسرقهن . . ! نعم ليسرقهن هل ستخرب الدنيا من أجل ثلاث سمكات مسروقة؟ سيضع يده فوق السمكة

المطلوبة مغطياً إياها بكفه، وحين ينشغل البائع سيرخي يده إلى جنبه ببساطة وهدوء، ثم يدس السمكة في جيبه وكأن شيئاً لم يكن. . ! وليحصل على سمكاته الثلاث ماعليه إلاّ أن يكرر ذلك ثلاث مرات فقط! الأمر بسيط بالفعل. . ! وللتو أدرك عبد الله السبب الثاني الذي جعله يحدد حجم السمكات. . ! فلعله دون أن يفكر كان يضع احتمال سرقته لهن. . ! فإن لم يستطع أن يسرقهن؟!! افرض أن البائع كان متنبهاً يقظاً، حاد النظر، أو كان له مساعدون يراقبون المشترين ويتلصصون عليهم خفية؟! ما العمل آنذاك؟!

لن تعجزه ثلاث سمكات. . ! سيغتصبهن. . ! إن لم يبق أمامه إلاّ هذا الطريق سيلجه. . ! سيأخذهن عنوة وعيون البائع تحدق به. . ثم يتحول إلى قط أسود، أو طائر أو سحابة، وليلحقوا به عند ذاك إن استطاعوا. . !

مازال عبد الله يغذ الخطو كالمنوم، جسده وحده يتحرك، قدماه تقودانه، فذهنه مشغول فقط بسمكاته. . ! إنه يكاد يراها تتلألأ تحت الشمس وتنتفض كأنما خرجت تواً من الماء. . ! هاهوذا عبد الله يحتضن سمكاته، ويحملها إلى عجوز طيبة طردها أولادها، فأشفق هو عليها، ودعاها إلى بيته لتطبخ له، وتغسل ثيابه، وهو لايقدم لها إلاّ خبز بطنها. . !

توقف عبد الله مبهوتاً مباغتاً. . كيف غاب عنه ذلك؟ لم يكن الشاب الطيب متشرداً، بل كان له بيت يأوي إليه، وعمل يذهب إليه. . ! أما هو فلابيت ولاعمل، فأين سيأوي العجوز الطيبة المطرودة من بيت أولادها. . ؟! أترضى العجوز أن تتشرد معه؟ إنها تريد من يأويها، لامن تتشرد معه. . ! لماذا يتوقف طويلاً عند هذا؟ سيجد شحاذة أو متشردة، ليس مهماً أن يكون أولادها قد

طردوها، بل الأفضل ألا تكون مطرودة منهم، وإلا فإنها ستعطيهم كنزه، فالأم لاتنسى أولادها ولو لدغت من جحرهم آلاف المرات. . ! إذن سيجد متشردة مقطوعة من شجرة. . وسيعرض عليها رفقته، فالرفقة ليست قليلة للمتشرد، فحتى المتشرد لايريد أن يتشرد وحيداً. . إذن سيتصاحبان هو والعجوز، وبدلاً من أن تنام في العراء على الأرصفة، أو في مداخل البنايات المهجورة وحيدة. . سيرقد غير بعيد عنها، وستحس بالأمن بوجوده. . ! حسناً هذا ممكن. . فلماذا يُراوغ نفسه؟ ولماذا يتعلق بالتفاصيل؟ لن يطبق كل شيء ورد في الخرافة حرفياً. . يجب أن يكون مرناً وإلا فلن يصل إلى الكنز أبداً. . ! حقاً، حقاً! إن هناك العشرات من التفاصيل التي ستقف حجر عثرة في طريقه، فمثلاً لقد تبين الآن، وهو يبحث عن عجوزه الطيبة، أن الشاب لم يكن فتى طيباً

نموذجياً، يمكن أن يُحتذى . . ! لقد كان شخصاً عادياً لم يقدم للعجوز إحساناً . . لقد كانت العجوز تخدمه مقابل ماذا؟ مقابل خبز بطنها فقط . . ! فهل كان ذاك الشاب سيجد خادمة تخدمه بخبز بطنها؟ لقد كانت الصفقة لصالح الشاب دون شك . . ! على هذا لايحق للشاب أن يعثر على الكنز، وهذا هو واقع الحال فالعجوز هي التي عثرت على الكنز ومنحته للشاب، وهكذا فاز بالكنز كله، وتزوج ابنة السلطان مقابل لاشيء . . ! فالشاب لايستحق الكنز إذن ولاحق له فيه، وعلى هذا، فمادام عبد الله شبيه الشاب بطل الخرافة فإنه لايستحق الكنز، ولاحق له فيه . . ! وربما لن يحصل عليه . . ! إلاّ إذا كانت العجوز طيبة، هذه نقطة مهمة إذن، لابد أن تكون العجوز طيبة وإلاّ ضاع كنزه كما ضاع بترول العرب.

أما هو فكالشاب تماماً إنما يجمع العناصر لمصلحته لابطيبة فيه . . ! عليه إذن أن ينحي

التفاصيل جانباً، ويذهب إلى هدفه تواً، دون تلكؤ أو إبطاء، وإلاّ فإنه سيحار في كيفية إعداد السمكات، فأين الغاز وأين الزيت وأين الأوعية؟ هل سيدع أمله ينهار من أجل العدة؟ من أجل تفاصيل غير مهمة؟ لا . . فهل سيفرض عليه القط الأسود أن تكون السمكات مقلية أو مشوية؟ وأي قط هذا الذي لا يأكل السمك نيّئاً . . ؟!

حقاً لا حاجة للتفاصيل، فالسمكات ستترك نيئة دون إعداد، فإن لم يأخذها القط فإنني سأحطم رأسه . . ! ماهذا الجنون . . ؟! من سيقودك إلى الكنز لو حطمت رأس القط . . ؟ حسناً . . حسناً . . ! إن لم يأخذها نيئة سأجعل العجوز الطيبة تشويها له شيّاً . . ولكن ليس أكثر من ذلك . . ! ماباله يستبق الأمور . . ؟! ليحصل علي السمكات أولاً، ثم سيجد بقية العناصر الأخرى . . المهم هو السمكات الآن . . وكل شيء

سيرتب. . ! كيف لا وهذا هو أمله الوحيد والأخير ليخرج من أزمته وينجد أولاده الذين يتهددهم الجوع والمرض. . !

غذّ عبد الله السير نحو أمله الوحيد والأخير، ومازال كالمنوم جسده وحده يتحرك، وقدماه وحدهما تقودانه، وكل شيء راكد ساكن، ميت فالناس كالأشباح، والسيارات تسير لكن دون حركة أو ضجيج. . سمكاته وحدها التي تتحرك، وحدها الحقيقية وكل شيء كالأشباح. . !

هاهو ذا سوق الأسماك. . وصلته الرائحة الزنخة فتشممها وتنشّقها كأنها رائحة مسك، وأغلقت منافذ عبد الله، عمّا سواها، لم يعد يسمع شيئاً، لم يعد يرى شيئاً، غاب كل شيء، واختفى حتى صوت ابنه الذي يستصرخه، :
بابا ماما مريضة، ارسل لنا ولو قليلاً من النقود. . !

. . واندفع عبد الله إلى السوق ليحصل على سمكاته الثلاث. . فرآها. . رآها بأفواهها الوردية الخارجة تواً من البحر، تتلألأ تحت نور الشمس، وتنتفض راقصة فوق تل من الذهب واللآليء!



عبد الله يبحث عن ذات النعل الحديدي

عندما لمعت الفكرة في ذهن عبد الله كبرق يخطف الأبصار كان ينحني فوق المزبلة، وبعجالة يدين معروقتين ومتسختين كان يفتش عن بقايا طعام صالح للأكل.. !

في تلك اللحظة، حيث لمعت الفكرة في ذهنه كبرق يخطف الأبصار، كانت عين في المزبلة، وأخرى تراقب القطة التي تتحيّن غفلة منه لتشاركه في طعامه.. !

حين لمعت الفكرة في ذهنه ظل على انحناءته تلك، كأنما شلّته الفكرة المفاجئة كالصاعقة، لقد

جاءته الفكرة، منذ اللحظة الأولى، بيقين الإلهام، وصلابة الإشراق فظل متجمداً على وضعيته تلك وعيناه وحدهما تحدقان في القطة دون أن ترياها، إذ في تلك اللحظة بالذات، وعيناه تحدقان في القطة فلا ترياها، كان يسترجع الفكرة- الإلهام ليقبض عليها جيداً، وليوطنها في صدره كما يتوطن رغيف خبز ساخن في أحلام الجائع، وكما يتوطن الحقد في قلب المظلوم. . !

قال عبد الله يحدث نفسه: لابد أن ذات النعل الحديدي قد استقرت الآن. . ! منذ زمن مغرق في القدم، حين كان الناس حكاية، والحكاية هم الناس، لبست المرأة حذاءها ذا النعل الحديدي لتقطع الأرض أربع مرات، وهو العدد الضروري الذي لابد منه ليذوب النعل الحديدي لحذائها. . !

اعتدل عبد الله، وقال بحماسة: حقاً إن المضطر يأتي بالمعجزات والضرورة أم الاختراع. .

بل وأبوها أيضاً. . ! وإلا كيف تذكرتُ المرأة ذات النعل الحديدي التي فارقتها طفلاً؟!

وفي غمرة حماسته التي بعثها الإلهام أضحى عبد الله أكثر كرماً مع القطة، فقال لها، وهو ينفض يديه من أوساخ المزبلة: تفضلي. . ! انعمي بالنفايات فأنت لست كعبد الله تجدين حلولاً مناسبة للمشاكل في الوقت المناسب! ذلك مايميزني عنك ياقطة. . فلا تستعجلي ولاتخافي، لن نتشاجر بعد الآن كروسيين. . . !

انقضّت القطة على كوم النفايات، لكن عبد الله لم يتحرك، ظل مركوزاً في الأرض كوتد، فهو لايعرف كيف يبدأ، ولامن أين يبدأ كصوص لم يتعلم المشي بعد. . ! الفكرة إشراق، إلهام لم يقلّبه على وجوهه المتعددة ليشرع في التنفيذ. . ! ثم مايدريه ماذا افتتحت ذات النعل الحديدي حين استقرت. . ؟ هل افتتحت حماماً؟ أم مطعماً أم فندقاً. . أم افتتحت هذه المحلات كلها؟

حقاً إن الفكرة لم تولد كاملة . . ولابد من إعمال الذهن وكده فيها . . ! والمرجح عند عبد الله أن المرأة لن تتقيد بحرفية الخرافة العتيقة كما يتقيد الطغاة والقضاة والشرطة والموظفون بحرفية خرافة القوانين والتعاليم . يتوقع عبد الله أن المرأة قد أدركت أن الجياع في هذا العصر هم الأكثر ، لذلك من المؤكد أنها افتتحت مطعماً بدلاً من الحمام . . !

بل ويذهب ذهنه إلى أبعد من هذا ، فالمرأة التي أكملت دوراتها الأربع الضرورية لذوبان نعل حذائها ، قد صادف ذوبانه في عصر السرعة فانتقل إليها إيقاع العصر ، ولكي تصل إلى زوجها الأمير بأسرع مايمكن ، افتتحت دفعة واحدة : حماماً وفندقاً ومطعماً ، وربما أشياء أخرى غير هذه . . !

وهذا استنتاج منطقي ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . . ! ومادام الأمر كذلك فعبد الله كالسلطان حرفي الاختيار ، ليبدأ بالمكان الذي يراه مناسباً . . !

قال عبد الله : لن أحار أبداً . . ! سأزور هذه المحلات وأنعم في العيش فيها كلها! أمّا الآن فلابد أن أبدأ بالأهم . . ! الأولوية تحددها الحاجة، ألم تولد الفكرة وأنا أبحث عن الطعام؟! إذن المطعم أولاً، فلأتحرك إليه . . !

لم يتحرك عبد الله، ظل متجمداً كالمضبوع يقلّب عينيه في القطة التي تركت كوم النفايات، ووقفت قبالته تموء . . ! قال عبد الله بعصبية :

-: لم تجدي شيئاً نافعاً أليس كذلك . . ؟ لاتشغليني بهمومك ومشكلاتك فأنا أحل مشكلات البشر لامشكلات الحيوان . . ! ثم إنني لم أهتدِ إلى البداية حقاً . . فـفكرة المطعم أولاً ليست بالفكرة الوجيهة . . ! إنني أحس أن ثمة مايعترض تنفيذها وإن لم أتبينه بعد . . !

لقد نسيت نفسي . . إنني أقف في الشمس اللاهبة ألهث كضب في صحراء، لاشك أن

الشمس هي المسؤولة عن عدم وصولي إلى البداية المناسبة، إنها تمنعني من التفكير الوجيه وتجعلني أطبخ الحلول كما يطبخ الوشاة أكاذيبهم!

لأسترح في الظل قليلاً وأفكر بهدوء فمن يحدد الحلول أولاً بذهنه ويرتبها يكون قد قطع نصف الطريق إلى تنفيذها. . ! الحقيقة المؤكدة أن فكرته الملهمة لم تولد كاملة. . ومازالت تحتاج إلى كدّ الذهن!

ابتعد عبد الله عن كوم النفايات، واحتمى في ظل جدار قريب من الشمس اللاهبة، قرفص مسنداً ظهره للجدار. . لحقته القطة، جلست على قائمتيها الخلفيتين تنظر إليه. . ثم لم تلبث أن اضطجعت ونامت. . ! قال عبد الله: الحيوان الذي لايفكر أراح نفسه، وأنت مازلت مقرفصاً؟!

دفع قدميه إلى الأمام، وجلس على عجيزته فأحس بالراحة. . وللتو وهو ينظر إلى نفسه أدرك

لماذا لم يرتح قلبه لاقتراحه الأول . . إنه شديد الوساخة . . ورائحته كفيلة بجعل رواد المطعم يضعون أطراف ثيابهم في أسنانهم ويركضون كالمطاردين من رائحته المنتنة، فرائحته تفسد الهواء حتى على مسافة مائة متر . . ! إن ذات النعل الحديدي لن تقبل زبوناً منتناً كالجيفة مثله . . ولو كان في حكايته حل للغز الطريق إلى أميرها . . !

من حسن الحظ أنه لم يسارع الى تنفيذ اختياره الأول بالذهاب إلى المطعم، وإلاّ لكان أفسد كل شيء!

إذن ليذهب إلى الحمام أولاً، وبعد أن يرمي الوسخ والقمل والنتانة كما ترمي الأفعى جلدها، يذهب إلى المطعم ليأكل وجبة دسمة تخدّره، وتجعله كالأفعى يحتاج إلى قيلولة طويلة ليهضم غذاءه الدسم . . وعند ذاك يصبح الذهاب إلى الفندق أمراً لامناص منه . . !

اعتدلت القطة بتكاسل . . نظرت إليه وماءت . . تطلع إليها قائلاً : أعرف . . ! إنك تحتجين على الخطوات التنفيذية التي خططت لها ، لأنها لاتماشي الواقع ، ولاتستجيب له . . ! البطن أولاً . . ! مادامت البطن خاوية فإن الواحد لايستطيع أن يفكر أو يستحم أو ينام . . أعرف ذلك . . !

على كل حال ، إن ثيابي المشدودة كحد السكين من شدة الوسخ ستبقى كذلك ، فأنا لن أستطيع غسلها أو استبدالها . . !

ليتوكل على الله ويذهب إلى المطعم ، فالمرأة ذات النعل الحديدي لاتهتم بهيئة الزبون كجارية السيدة زبيدة التي قطعت إصبع معشوقها لأنه أكل (الزرباجة) ولم يغسل يده . . ! إن مايهم المرأة الحديدية النعل هو مقدار ثروة الزبون من الحكايات . . وسيثبت عبد الله أنه الأغنى . . !

قفزت القطة فجأة، واندفعت راكضة إلى كوم الزبالة، قال عبد الله: لعلها وجدت شيئاً نافعاً أخيراً.. أو ربما خيّل إليها أنها رأت شيئاً كالعطشان الذي يرى السراب ماء!

ماذا..؟ مازلت رِجلاً في الزبالة، وأخرى في فكرتك الملهمة المنقذة؟ ربما يعز عليك أن تفارق القطة؟ المسكينة إنها لاتستطيع أن تجد لنفسها حلاً دائماً، فهي تكتفي بالحلول الآنية العارضة.. سيساعدها..

-: اسمعي أيتها القطة المسكينة..! سأختلس من وجبتي قطعة لحم وسأعود إليك..!

عادت القطة إلى الظل خائبة.

قال عبد الله: لقد سمعت باللحم فعدت.. حتى اسمه يثير حاسة شمك القوية! حسناً. أنا لاأكذب وسأعطيك قطعة لحم من وجبتي هذا إذا كان فيها قطعتان.. أما إذا كانت واحدة فأنا أحق

بها . . وحتى لو كانت كبيرة فإنه لايمكن تقسيمها على اثنين . . ! نظرت القطة إليه بتكاسل، أغمضت عينيها ثم فتحتهما، وماءت بفتور .

قال عبد الله: إنك ترجينني . . لن أخذلك . . انتظريني حتى أعود . . لاتذهبي فسأحتفظ لك بقطعة الوجبة الثانية . . ! هل كنت تظنين أنني سأكتفي بوجبة واحدة؟ أنت لم تعرفي الجوع إذن! قد أطلب وجبة ثالثة وربما رابعة وخامسة، لاتخشي علي فأنا قادر على الدفع، إنني مخزن حكايات . . !

لو كان الغنى يُقاس بما يملكه الواحد من حكايات لكنت من الأثرياء المعدودين كالطغاة المعدودين . . !

حقاً لماذا لاتكون الحكايات بديلاً عن قطع النقود؟ لقد استخدم الناس كل الأشياء في المبادلات التجارية إلاّ الحكايات . . ! هذه المرأة

ذات النعل الحديدي ربما عبدت الطريق لعصر المبادلة بالحكايات. . ! لو قامت بذلك لأحدثت أكبر ثورة في تاريخ البشرية. . ! ماأروع أن تدخل إلى أي متجر أو مطعم أو فندق أو مخبز أو مخزن. . وتأخذ حاجتك وتقبّضهم حكايات. . !

لو حدث هذا لساد الود بين الباعة والمشترين، ولأصبح الناس يكدسون الحكايات البيضاء لأيامهم السوداء. . ! ولاستطعت أن أبني بدل البيت المتواضع الذي أحلم به، قصراً. . ! سأجعل البنائين يبنون وأجلس إليهم أقبّضهم حكايات. . !

سأتزوج. . حالاً سأتزوج. . وسأختار أول أنثى أصادفها، ولن تعقبني نظرتها ألف حسرة لأنني سأذهب إلى بيت أهلها بثقة لأطلب يدها، إذ لن أخشى أن يردني والدها لأن جيبي خال من المهر. . فرأسي مملوء بالحكايات. . ! وسأجعلها تعيش كأميرة. . لن أخشى مطالبها. . ! لتطلب

ماتشاء . . ! ماذا تحتاج المرأة أصلاً؟ أن تلبس ، تستحم ، تأكل ، تنام تحت سقف؟ سأدفع ثمن ذلك كله ، سأدفع حكايات طويلة ، أو حتى عدة حكايات لقاء الأغلى والأثمن من الأشياء والأمكنة والبشر . . ! إن ثروتي مهما بالغت المرأة في نزواتها ، لايمكن تبديدها . . ! كما أنها لاتفقد ، ولاتأكلها النيران ، ولاتضيع في تجارة ، ولايسلبها قطاع الطرق ولا الشرطة ولا السلاطين . . .

صدقيني أيتها القطة : إن الأولاد ، مهما بلغ عددهم ، لن يشكلوا ، في تلك الحالة ، أي عبء إضافي علي . . ! إنني أغرف من بحر كالمسعدة الساكنة على الشط أينما مالت غرفت . . !

وسأكون أكرم من جدي حاتم الطائي ، وأكثر تبذيراً من جدي هارون الرشيد ، في حكايات الف ليلة وليلة ، إذ لن أتردد في مساعدة الفقراء الذين لاخيال لهم ، ولاحكايات لديهم . . ! لن أكنز

الحكايات، ولن استغل الناس بها، بل سأمنحها لكل من يحتاجها . . !

ماءت القطة بتكاسل . . نظر عبد الله إليها . . وقال :

- : يبدو أنني ذهبت بعيداً كمالك جرة السمن، حيث ضرب بالعصا ولده الذي لم يولد بعد، فكسر الجرة . . !

إذن شيء خير من لاشيء ياقطتي . . ! فلنكتف بمطعم واحد وفندق واحد وحمام واحد . . يقبل بالحكايات ثمناً لخدماته . . !

عادت القطة الى الاضطجاع، أغمضت عينيها . .

- : أتنامين . . ؟! أنت لست معي . . لايعنيك ماأتحدث به لأنك لن تملكي مثلي حكايات لتبادليها بالطعام . . ! حتى لو ملكت فأنت عجماء لاتفصحين، أما أنا فحيوان ناطق . . ! تلك هي

الحكمة من جعلي حيواناً ناطقاً . . ! لأدبر أمري وأرتقي بحياتي وأحسن وضعي عن طريق إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات التي تعترضني . . !

اسمعي إذا انتظرتني ربما أشفقت عليك، واصطحبتك معي في المرات القادمة . . !فأنا لاأخسر شيئاً . . أنا بحر حكايات . . ! سيخلص الزمن ولاتخلص حكاياتي . . !

رفعت القطة رأسها دون أن تعتدل، ثم عادت للنوم . .

- : أيتها اللعينة أنا أحدثك وأنت لاتبالين . . ! لاتصدقيني؟ إنني أضيّع وقتي معك . . حقاً لقد عطّلتني . . لن أتخلّف أكثر . . الوداع . . !

استوى عبد الله ناهضاً بحركة سريعة لاتتناسب مع وضع الاسترخاء الذي كان فيه . . ! اصفرّت الدنيا في عينيه، ثم اسودت كاد أن يقع . . استند إلى الجدار ريثما استعاد توازنه . . !

-: إنه الجوع.. عليّ أن ألحق وجبة الغداء، وإلا فإنهم سينطرونني حتى وجبة العشاء.

سار عبد الله متعجلاً متلفتاً كأنما يطارده مخبر! وظلت القطة نائمة.. خفف عبد الله من سرعته حين تذكر أنه لايعرف المطعم بعد.. هز كتفيه بعد تردد قصير، وقال سأسأل أي عابر وسيدلني.

لم يقطع عبد الله مسافة طويلة حين صادفه شاب.. استوقفه عبد الله إلاّ أن الشاب وقف بحيث لايكون في مواجهته، وخيل إليه أنه أغلق أنفه بأصابعه..!

فكر عبد الله: إنه يتقذّر منه كأنما هو جرذ خارج من المصارف.. حسناً سيدرك هذا المتأفف، بعد حين، أنه أغنى منه..! سيفهمه عبد الله ذلك على كل حال..!

قال عبد الله: أيها الشاب.. أين المطعم الذي يبادل الوجبة بحكاية..؟

استدار الشاب وواجهه تماماً . . مازالت نظرة الإزدراء مرتسمة على وجهه كتكشيرة زوجة أب ، قال الشاب :

- : لم أسمع بهذا المطعم أبداً . . !

قال عبد الله بثقة : حاول أن تتذكر ، وسأدعوك على حسابي ، فأنا مخزن للحكايات النادرة كالأحجار الكريمة في زمننا ، وليس في زمن ألف ليلة وليلة ، لأنها هناك تصادفنا أينما توجهنا : في مغارة عفريت ، في سراديب كنز مرصود ، في بيوت التجار ، في المدن المسخوطة . .

قال الشاب وقد تلاشت نظرة الازدراء لتطوف على ملامحه نظرة شك واستغراب : أيوجد مثل هذا المطعم في مدينتي وأنا لاأعرف . . ؟

- : نعم يوجد . . !

- : خذني إليه فوراً كما يأخذ المارد بطل الحكاية إلي أي مكان يرغب فيه . .

-: لكنني لست مــارداً. . أنا أحــدثك عن مطعم حقيقي. .

-: فلنعجل إليه. .

-: على رسلك. . هل تستطيع أن تدفع فيه؟

-: لاعليك سـأدفع لهم حكايات واقـعـيـة وليست خيالية. . مثلاً حكاية أمي التي أحبها أبي، ثم هربت منه حين لوح لها صاحب سيارة فهي ضعيفة أمام السيارات من أي نوع كانت، فهي لاتأكل بثدييها، ولكنها تملك السيارات بهما. . !

-: كيف تحكي حكاية أمك للغرباء. . ؟

- إنها الحكاية الوحيدة التي أعرفها عن يقين، لذلك لايمكن ردها في مصرفك أو مطعمك. . !

-: إنها حكاية مألوفة وشائعة ومبتذلة. . !

-: شائعة كيف؟ أقول لك إنها حكاية أمي أنا بالذات. . !

-: حـسناً. . ! حـسناً لاتغـضـب وتقطّب حاجبيك كطقس مكفهرّ.

-: إن لم تعجبهم سأحكي لهم حكاية أبي فهي واقعية ومأساوية، فعندما هربت زوجته أغرق نفسه في الخمرة، وعاشر النساء الساقطات..

-: كفى كفى.. لقد عرفت المشكلة.. أنت لاخيال لك..! وهذه الحكايات قد تنفر صاحبة المطعم التي لايهمها لامصير أمك ولامصير أبيك.. إنها تريد حكايات توحي لها بالطريق الذي تسلكه لاستعادة زوجها الأمير المفقود..

-: هي أنثى إذن؟ هذا يسهل الأمور..! ربما استطعت أن أكون الحبيب المفقود.

-: لاتؤمل نفسك..! إنها لاتشبه أمك في شيء، فهي ليست من بنات هذه الأيام لتبدل حبيبها كما تبدل فساتينها، إنها مقيمة على العهد، فهي من نساء الحكايات اللواتي لايبدلن طبائعهن أو ضمائرهن..! و قبل أن يغادرها زوجها الأمير ويختفي من حياتها.. قال لها: إذا أردت أن

تجـديني فـمـا عليك إلاّ أن تلبـسي حـذاءاً ذا نـعل حديدي وتدورين به الدنيا إلى أن يُبلى، وعند ذاك تفتحين مطعماً وتعلنين أن الوجبة بحكاية. . ولابد أن تظهر حكاية تدلك على الطريق إليّ. . !

- : ولبست الحذاء ذا النعل الحديدي؟

- : وقطعت الأرض من أقصاها إلى أقصاها أربع مرات.

- : وذاب النعل الحديدي؟

- : وافتتحت مطعماً.

- : هذه والله حكاية باهرة ماحكتها شهرزاد للملك شهريار. . ! لابد أن نجد المطعم. . !

- : سأجده بنفسي. . !

- : سأبحث معك عنه. .

- : لكنك لاتعـرف حكايات أيام زمـان. . ! وحكاياتك الواقعية لانفع فيها، فضلاً عن أنها منفرة، وينبو عنها السمع. .

-: من قال لك إنني لاأعرف حكايات أيام زمان؟! كل ماهنالك أنني ظننتها امرأة عصرية تُعنى بالحكايات الواقعية أما مادام الأمر كما تقول فأنا لها. وأعتقد أن نساء الحكايات أسهل كثيراً من نسائنا، إنهن يذبن في الجمال، ونظرة واحدة مني ستعقبها ألف حسرة..

-: نعم إنهن يعشقن الجمال، وقد حبست واحدة منهن «عزيز ابن عم عزيزة» في حكاية العاشق والمعشوق، سنة كاملة، تقدم له أطايب المأكول والمشروب والمشموم ليقوم بفعل الديك فقط..! ولكن الويل منهن إن عشقن، إن الواحدة منهن يظل يغشى عليها كلما ذكر المعشوق إلى أن يمتن... وصاحبتنا عاشقة..!

-: لاتخشى شيئاً سأشبعها حكايات..

قال عبد الله في نفسه: من يأخذ الدب إلى كرمه؟ ثم استدرك وقال: وماشأنك أنت فالمطعم

يستوعب الكثيرين، قبلك استقبل المئات وربما الآلاف . . ! ثم إنني أجزم أن هذا الدعي لايملك حتى ثمن وجبة واحدة، فهو لاخيال له . . ! ألم تكفك حكاية أمه دليلاًعلى ذلك؟ تلك هي عادة الناس فهم يدعون دائماً أنهم يملكون مالايعرفونه حتى مجرد معرفة . . ! دعه يجرب معك على كل حال . .

التفت الى الشاب وقال له : هيا . . سنبحث سوية عن المطعم . . !

قال الشاب أخشى أن تكون قد فاتتنا وجبة الغداء . . ! فقد تأخر الوقت بالنسبة لها . . !

- سنلحق وجبة العشاء إذن . . !

- : لنسرع فأنا أكاد أموت من الجوع . . !

- : وأنا يكاد يغشى علي من شدة الجوع، كما يغشى على أبطال ألف ليلة وليلة من شدة العشق . . !

- : افرض أننا لم نجده. . أو وجدناه في وقت متأخر، فما العمل؟

- : نذهب إلى الحمام أو إلى الفندق. .

- : وماذا نفعل فيهما، لاأظن أنهم يقدمون طعاماً؟

- : في الفندق يقدمون فراشاً وثيراً كامرأة مضمَّرة لاعظام فيها، وفي الحمام ماء دافئاً كقلب العاشقة، وهناك ستُخلق من جديد، نظيفاً كأنما ولدت للتو من بطن أمك. . !

- : ولكننا جوعى. . بطوننا أولاً. . !

- : قد نحصل هناك على عشاء خفيف. . !

- : وهل ستدفع أنت الفلوس. . ؟

- : بل سيدفع كل واحد عن نفسه، ولكن ليس فلوساً، أمازلت متعلقاً بأرضك كرضيع بثدي أمه؟ المحلات التي آخذك إليها لاتقبض إلا الحكايات. .

-: الفندق والحمام أيضاً . . ؟

-: نعم .

-: ألهما صاحب أم صاحبة؟

-: إنما هي نفسها صاحبة النعل الحديدي .

-: هنا أيضاً؟

: لقد افتتحت أكثر من محل ليكون حظها أوفر في الوصول إلى الحكاية المطلوبة .

-: ليتني أستطيع الفوز بها . .

-: لاتجرب .

-: لماذا . . ؟ فأنا مازلت شاباً، ثم إنني وسيم جداً، انظر إليّ وتأكد بنفسك، والوسامة هي البضاعة الرائجة الآن . .

-: لاتغتر بنفسك، فكما قلت لك هذا الطريق مسدود لأنها عاشقة . . !

• وحدث عبد الله نفسه : إن هذا الولد كأمه، كما حصلت هي بفرجها على السيارات، يريد هو الحصول عليها بفرجه أيضاً .

قال الشاب: يُخيّل إلي أنك إنما تحلم بهذا، يارجل، كما يحلم المحكوم بالإعدام.

-: إنه علم لا حلم..!

-: من يصدق..؟! كل شيء يقُدم لك وماعليك إلا أن تدفع الحكايات إنها كالكذبة..؟ ماأسهل الحياة على هذا النحو..!

-: انظر.. انظر.. هذا مطعم شهرزاد.. لعله هو فالاسم من عالم الحكايات.

-: حقاً إنه يُوحي بالحكايات، لاشك إنه هو، إنني أصدقك الآن..!

- كنت تشك في كلامي إذن..؟

-: بصراحة يخيل إليّ أحياناً أنك: لابد قد حلمت بذلك، وإلا فمن يصدق ماتقول؟

-: والآن..؟

-: اختلف الأمر.

-: دعنا لانضيّع الوقت في الحوار.. لندخل.

-: ادخل أنت أولاً.

-: بل أنت، فأنت شاب وثيابك لائقة ونظيفة وكأنك عريس..

-: ولكنك الدليل..! أنت تعرف كل شيء مثل عجوز محنك، وستتصرف أفضل مني بكل الأحوال، ثم إنك رجل أربعيني تُوحي بالوقار! ومن ينظر في وجهك مجرد نظر سيدرك على الفور أنك لابد أن تكون مخزن حكايات.. ولاعبرة في اللباس هنا..!

-: ليكن أيها المنافق!

دفع عبد الله الباب الزجاجي ودخل فتبعه الشاب، رحب بهم غير واحد من الخدم، قال الشاب هامساً: إنه هو..! لاشك أنه هو فهم يرحبون بك بحرارة وكأنهم يعرفونك!

لم يعره عبد الله اهتماماً، ولم يرد عليه، بل قال للخادم الذي مازال يرحب بهم، ويدعوهم للجلوس إلى طاولة اختارها لهم بنفسه..

-: قل لي أيها الفتى. . أهذا هو المطعم الذي يبادل الوجبات بالحكايات؟ كتم الخادم دهشته، ومنع فمه من أن يُفتح انبهاتاً إذ لا يليق به أن يظهر اندهاشه أمام الزبون، حتى لو كان مايقوله غريباً ولا يصدق إلا أنه قال بعد تردد: أهناك مطعم مثل هذا؟!

-: ألم تسمع به. . ؟

-: هذه هي أول مرة بصراحة، وأضاف بعد تلكؤ: والأمر يبدو لي غريباً جداً. . !

-: ستسمع أشياء كثيرة غريبة، لم تكن تخطر لك على بال، مادام عبد الله جائعاً ودون سقف. .

-: ومن عبد الله هذا؟

-: أنت لاتعرفه أيضاً؟ لن أدلك عليه، ستكتشفه بنفسك ذات حلم. .

أدار ظهره للخادم الذي سمح لنفسه الآن أن ينبهت ويندهش كمن رأى السيدة زبيدة وهي لاتقدر على المشي لكثرة ماعليها من الحلي والحلل. . !

-: لاتيأس. . ! لقد سمع به الآن! ولو سأله آخر غيرنا فسيجيبه: إنه قد سمع عن ذاك المطعم، وإن كان لايعرف طريقه. . !

-: ونحن لانعرف طريقه أيضاً. . !

-: أأردت أن تصل إليـــه فـــوراً ودون عناء. . ؟! أظننت أنه ســيكون أول مطعم نلجه. . ؟! في الحكايات، وأنا خير من يعرفها، لايصل البطل إلى غايته إلا بعد المرور بالأهوال. .

-: وهل سنمر بالأهوال لنصل إلى المطعم. . ؟

-: لاتكن لجوجاً وتحلَّى بالصبر. .

-: أريد أن أتحلَّى وأتملَّح بالأكل لا بالصبر.

-: تذكر أن اللقمة التي توعد بها خير من التي تأكلها.

-: أرجو ألاّ يطول الوعد. . ! انظر: مطعم علي بابا. . ! إنه يذكــرني بعلي بابا والأربعين حرامي. . ليتني علي بابا. .

-: هذه المرة ياعلي مـامـا لـن تواجـه أربعين حراميًا إذ لم يعودوا كذلك لقد تغيرت صفتهم أو تسميتهم، فهم الآن: أربعون تاجرًا أو أربعون سمسارًا، أو أربعون عفريتًا. . ! إلا أنهم لم يعودوا أربعين، لقد أصبح من المستحيل عدهم، فهم بالمئات أو بالآلاف، لقد فرَّخوا.

-: إنني أكاد أموت من الجوع، فلندخل. .

-: هيا تفضل واسأل.

-: لقد اتفقنا أن هذه مهمتك أنت. .

-: وأنت تقطف الثمار فقط أيها الثعلب الماكر. .

-: لاتتلكأ أيها القنفذ النشيط! فالقسمة، في النهاية، لصالحك. . !

-: حسنًا. . سأحاسبك فيما بعد! والله لن أدفع لك ولا حكاية، وسأتركك تواجههم بحكاياتك الواقعية السمجة كدبر السعدان ليطردوك في النهاية شر طردة.

دخل عبد الله المطعم، وتبعه الشاب متريّثاً عند المدخل، قال عبد الله للطباخ الذي كان يقف خلف الطناجر والقدور . .

-: أيها الأخ . . ! أهذا هو المطعم الذي يقدم وجبة لقاء كل حكاية؟

نظر الرجل إلى عبد الله بإمعان، ثم نظر إلى تابعه الشاب، ولم يسمح لنفسه باندهاش غير مسموح به، ولكنه قال بعد صمت قصير مصطنعاً الجد:

-: لا . . ليس هذا هو المطعم الذي تبحث عنه . . ! ولكنه ليس بعيداً على كل حال! أترغبان في الوصول إليه حقاً؟

قال عبد الله دون أن يخفي فرحته: بالطبع . . !

قال الطباخ: إذاً استمرا قدماً في هذا الشارع، لاتنعطفا يميناً أو شمالاً وستجدانه في نهاية الشارع، في الصدر تماماً . . ! ولكن عليكما أن تأخذا خبزكما معكما، فالمطعم يقدم وجباته دون خبز . . !

قبل أن ينهي الطباخ كلامه كان عبد الله والشاب قد أصبحا خارج المطعم يغذّان السير قدماً . .

قال عبد الله دون أن يخفف من سرعته : ألم أقل لك . . ؟ ! هناك من سمع به إذن .

- : بل إنه يعرفه .

- : إننا نبحث عنه وهو على مرمى حجر منا . . !

- : أليس غريباً ألاّ يقدم المطعم الخبز . . ؟

- : ومن يحتاج للخبز . . أتأكل خبزاً وتترك اللحم والحمام والفراخ . . .

- : اسمع ياعم عبد الله . . ! لاأعتقد أنك ستنفذ تهديدك لي . . !

- : لقد أقسمت . .

- : لقد كنت غاضباً (ولايؤاخذكم الله في اللغو) . .

-: ولكنك لاتحتاج إلي فعندك أمك وأبوك.

-: عِدني إنهم إن لم يقبلوا حكاياتي الواقعية فستعيرني مَاسأتغدّى به..

-: حسناً حسناً، لن أتركك تبلع ريقك كاليتيم.. ولو أنك لاتستحق ذلك، فأنت تركت العبء كله علي.

-: هذه المرة سأسأل أنا..

-: هذه المرة لاحاجة بنا للسؤال، سنذهب فوراً إلى الطاولات، ونطلب الطعام.

ظلا يسيران قدماً، وهما يتحدثان عن أنواع المآكل التي سيطلبانها، ويتفننان في الاختيار إلى أن وصلا إلى البحر..!

صرخ الشاب: ماذا هل للشارع بقية..؟

قال عبد الله: أتظن أن بقيته في قلب البحر.. لقد خدعنا اللعين..

-: ابن الكلب، لقد هزيء بنا كأحمقين، سأعود إليه وأحطم جمجمته..

-: مهلاً مهلاً لاتتعجل ربما كان المطعم هنا وانتقل..!

-: ربما..! لنسأل..!

اقتربا من عدة رجال كانوا يجلسون على مصطبة تشرف على البحر، سلما عليهم، وقال الشاب: أعتقد أنه كان ثمة مطعم على شاطىء البحر يبادل الوجبات بالحكايات.. ولكنه انتقل من هنا..!

قال أحدهم: أهناك مثل هذا المطعم؟

قال آخر: لو عرفه أبي لما مات جوعاً.

قال ثالث: إلى أين انتقل؟

قال الرابع: دلنا عليه..

قال الأول: أأنت واثق مما تقول..؟

قال الثاني: لاتعبث معنا كالصبية، وإلا سننكح أمك..

قال الشاب دون تردد: لقد أكلت فيه ألذ وجبة في حياتي كلها..!

قال أحدهم: مقابل حكاية. . ؟

قال الشاب: مقابل حكاية.

قال أحدهم: ولماذا لم تخبرنا من قبل يا ابن «القـ. . . »، ألا ترى طوابير الجياع كالغنم في صحراء قاحلة؟

قال آخر: قدنا إليه فوراً. .

-: لاأعرف أين انتقل.

-: سنجده ولو في آخر الدنيا. . !

-: أتعرفون حكايات لتشتروا بها وجباتكم. . ؟

-: من لايعرف حكايات. . ؟

-: بعدد شعر رأسك. . !

-: ليست حكايات ملفقة. .

-: ومن سيكتشف أنها ملفقة؟

-: صاحبة المطعم. .

-: أهي أنثى؟ ذلك أدعى للبحث. . لعلها تعطي شيئاً آخر غير الأكل مقابل حكاية. .

-: ذلك أكيد ياجماعة . . ! لنحصل على كل مانريد بالحكايات وحدها .

-: لنذهب على بركة الله . . !

سار عبد الله والشاب في المقدمة، وتبعهم الآخرون، وكان عبد الله طوال الوقت الذي حاور فيه الشاب الرجال يقف صامتاً كأن الأمر لايعنيه، وقد استغرب ادعاءات صاحبه، وكذبه الصريح دون أي إحساس بالخجل . . ! إلاّ أنه لم يوبخه، لم يعترض عليه، لم يسأله حتى مجرد سؤال لماذا فعل مافعل . . ! كل ماقاله له، وهما سائران في المقدمة :

-: من سيدفع عن هؤلاء الناس ياصاحبي؟ !

قال الشاب : سيدفعون عن أنفسهم، لاتشغل بالك بهم!

قال عبد الله بتهديد مبطن : سنرى . . !

كان الحشد يتكاثر ويتضخم ذلك أن الباحثين الجدد عن المطعم لم يكن يقيدهم حياء عبد الله،

ولاتردد الشاب، فهم جماعة، والجماعة تمنح أفرادها جرأة لايملكها الفرد الوحيد، وتجعل الجبان «أبو علي»، لذلك كانوا يسألون كل من يصادفهم، ثم يدعونه لتناول وجبة شهية في مطعمهم. . !

وحين التفت عبد الله خلفه وجد أنه يقود جيشاً من الجائعين الذين علا لغطهم وارتفع، ثم لم يلبث عبد الله وصاحبه أن أصبحا في وسط الجمع الحاشد، ذلك أن الكثيرين قد تقدموهم ودفعوهم الى الصفوف الخلفية دون مبالاة، فهم لايعرفون أن فضل الريادة لهم، وأنهم هم أصحاب الدعوة الأصليون. . !

ظلت الجموع تتقدمهم وتدفعهم إلى الخلف، حتى لم يبق وراءهم أحد. . ! واندفع الحشد إلى أول مطعم صادفه. . وتخلف عبد الله والشاب طويلاً، وحين دخلا أخيراً كانت الطاولات كلها محتلة، وكان الخدم يتراكضون بحركات محمومة

لتلبية طلبات الزبائن الذين انهالوا عليهم كالغيث، ولم يجدوا حتى الوقت ليفكروا كيف اجتمع كل هؤلاء الزبائن دفعة واحدة، وكأنما أمطرتهم السماء. . ! في ذلك الوقت، عندما دخل عبد الله وصاحبه، كان بعضهم قد شرعوا يلتهمون وجباتهم الساخنة.

التفت الشاب إلى عبد الله وهما مايزالان في مدخل المطعم، وقال:

-: أرأيت ماأسرع ماوجدوه. . ! يد الله مع الجماعة. . !

قال عبد الله: سنرى من يستطيع أن يدفع عن نفسه. . ؟ لن أنجد أحداً!

وسمع عبد الله أحدهم يقول للخدم: سنتحفكم بالحكايات. . حكايات ماسمعتم بها لعمركم. . !

تقدم عبد الله، ولم يعد قادراً على كتم غيظه، فصاح بالمتحدث:

-: أيها الغبي لاتهرف بمالاتعرف، فلا علاقة للخدم بالدفع، الحكايات لن تدفع إلا لصاحبة المطعم ذات النعل الحديدي التي قطعت الأرض أربع مرات. . ! ثم لاتتبجح كثيراً، فأنا أظن أنك ستحصر، وستكون أول من يعجز عن الدفع. . !

لم يُبال الآخر بما قاله عبد الله، بل اعتقد أن حديثه هو مجرد جزء من الضجة والهرج السائدين في المطعم!

تقدم عبد الله وصاحبه في المطعم الكبير، دار فيه من أوله إلى آخره أربع مرات كذات النعل الحديدي، وعبثاً بحثا عن طاولة شاغرة فوقفا، في طابور، ينتظران دورهما. . !

أهل الكهف

ركب القلق عبد الله كما ركب شيخ الجزيرة الأسود فوق كتفي السندباد البحري، لفّ ساقيه حول رقبته بإحكام، وراح ينام فوقه، ويتغوّط عليه ويتبوّل، حتى أصبحت جثة عبد الله أنتن من إهاب شرطي نكح امرأة أخيه.

ماكان عبد الله قادراً أن يزيح القلق عن كتفيه كما أزاح السندباد الشيخ الأسود بزقّه بنبيذ العنب حتى السكر، فلا حيلة تفلح مع قلقه، ولا خمرة تسكره وتهد حيله، ولا يمكن لصخرة مصمتة مرفوعة بغل الجسد المنتن لعبد الله أن تحطم جمجمة

القلق وتهشمه، كما هشمت صخرة السندبادالمنتن رأس شيخ الجزيرة، ونثرت مخه على الأرض!

إن قلق عبد الله يتعلق بحياته التي تضيع كالأموال العامة في مشتريات الخاصة، شبابه الذي ركض لملاقاته ليجني ثمار الجنة يتبدد بطقوس توزيع قروش الراتب الهزيلة فتفوته الثمار المحجوبة بأوراق التوت.

ويغمّس أطعمة لاطعم لها، لايملك إلاّ أن يشتريها، وإلاّ أن يندم على شرائه لها كمسترخص اللحم الذي يندم عند المرق. ويضيع في انتظار أعضائه غير المكتسية بالكسوة، فالراتب لايكسو جسده كاملاً.

يتبدد شباب عبد الله، أجمل أيام العروس، في الحياة الفانية، في حياة تخلو من المجد، وتتسرب لحظاته كماء قربة مقطوعة.. بل إن عبد الله مهدد في كل خطوة بالسجن، أو بالموت، أو

بشرطي يدبر له تهمة تحطمه، أو بحجر أساس بالت عليه الكلاب في دربها إلى القصاب. . .

هكذا تضيع حياته التي لاتحتمل التجربة، إذ لايمكن أن يُمنح عمراً ثانياً ليصحح انتهاكات الراتب الهزيل كعود المعكرونة الذي يقوده إلى فئة المتشردين.

ومادام عبد الله لايملك عمراً ثانياً، ولايمكن أن يمنحه فليصمِّد عمره، ليحبسه في قارورة النوم كما حبس سليمان النبي جني القمقم فلا يتسرب منه شيء، ولاتضيع منه لحظة. ليغادر عصره محتفظاً بسنوات عمره الباقية، ثم يعود بها مضمونة كحبات المسبحة.

أخيراً سيستقر عبد الله في رحم معتم ورطب كرحم أمه منتظراً الوقت المناسب ليخرج كوليد جديد يطلق صرخته الأولى في سن الثلاثين، على طريق أسلافه الصالحين: أهل الكهف!

لقد رآهم عبد الله، فقد نادوه مراراً، وكانت تحيط بهم هالة نورانية تحجب كل ماعداهم في الكهف المظلم، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، وكلما حاول العبور إليهم حاصرته انشغالاته، وأمل غامض بتغيّر وشيك، إلا أن التغير الوشيك حمل عبد الله على صهوة عود المعكرونة إلى ليل التشرد الطويل الطويل، فلم يبق إلا أن يستجيب لنداء أسلافه الطويل الملحاح كصرخة أخيرة!

وبهذا العبور الى ضفة الخالدين سيحطم عبد الله جمجمة قلقه وإلى الأبد.. ! بل سيحطم جمجمة شيخ المدينة - الشرطي أيضاً، فعندما سيعود عبد الله بعد غيبته لن يجد شرطة ولاعسساً يعتقلون فرحته، ويمدون أيديهم في جيوبه ولايصدقون أنها خالية..

لكن هذه معجزة ياعبد الله، وقد حدثت رحمة بأهل الكهف الشديدي التقوى؟

وما المانع في أن تكون له معجزته؟ بل لقد آمن أنها ستحدث منذ اليوم الأول الذي خطرت له الفكرة. . لكنه كان دائماً يؤجل البحث عن كهفه، أما الآن فلن يقبل تأجيلاً. . ! وهو لايقل ورعاً عن أهل الكهف، ورحمة الله لايمكن أن تنقص أو تزيد حسب العصر، فليحقق عناصر المعجزة لأنه يرى أبواب السماء قريبة منه. . !

لكن عبد الله لم يجد كهفه بعد. . ولماذا الكهف؟ سينسحب عبد الله من الحياة كسلحفاة إلى قوقعتها، ويغلق أبواب غرفته دون ضجيج الفانين، وستمر لحظة واحدة بحساب الرب هي كألف سنة مما يعدون. . فيقوم بعدها كما يقوم إله. . ! لكن من سيمنحه الوقت؟ الجيران الفضوليون أم صاحب الغرفة الذي سيحطم بابها فيجده مستغرقاً في حضن الرب، فيلقي به وبهروسه في الشارع، فتأكله الكلاب قبل اكتمال المعجزة. . !

لا . . ! لن يخاطر عبد الله بمعجزته من أجل كهف . . ! في الكهف سيكون كأنما في رحم لايعكر صفوه شرطي، ولايزعجه مؤجر . . ! نعم ليكن كهفاً حقيقياً وسيجده حتماً!

وأصحابه . . أين هم؟ هؤلاء ليسوا شرطاً ضرورياً لحدوث المعجزة، فالله نفسه يعرف الآن أنه لايمكن جمع ثلاثة، وهم أقل الجمع، على فكرة واحدة. ليضع همه في عنق الرب، وليذهب وحيداً . . ! لا ليس وحيداً تماماً فهو سيصطحب كلباً ليبسط ذراعيه بالوصيد، وعندها ستكتمل المعجزة حتماً . . فليذهب للبحث عن الكهف، الكهف أولاً.

* * *

تقدم عبد الله في البراري الخالية باحثاً عن كهفه الذي سيحميه كما حمى أجداده العراة حتى من ورق التوت! سيمضي الزمن دون أن يحس عبد

الله بوقع خطواته الثقيلة القاسية الوئيدة كخطوات الوحش، وحين يأتي الأوان، يلمّ عبد الله عظامه، وينهض من كهفه كما تنهض الشمس العائدة من مغيبها . .

اعترض عبد الله على نفسه، ونغّص حلمه: أين الكلب الذي سيبسط ذراعيه بالوصيد؟

رد على نفسه غاضباً: ماأكثر مخاوفك . . ؟ ستجد كلباً مافي هذه البرية الواسعة، المهم الآن هو الكهف . .

أحس عبد الله بالانتعاش فالهواء طلق كالبسمة، وكل شيء مختلف في البراري الخالية عنه في المدينة من المنشغلين بالرواتب الهزيلة، والدالفين بقوة الراتب إلى أفياء المتشردين الجامدي الوجوه، والشرطة الذين لايعرفون أن الرواتب لم تعد تكفي لأنهم يصرفون رواتب غيرهم . . ! هنا لو تقطّعت أسمال عبد الله وتعرّى كعصفور يخرج من بيضته، فلن يكون ثمة أحد ليلاحظ حتى مابين فخذيه .

يتقدم عبد الله وتنفسح السماء أمامه خيمة واسعة الأرجاء تتراكض فيها النجوم وهي تطارد الجن الكافر الذي يتسمّع أخبار السماء. . في المدينة السماء هي العمارات العالية التي تمنع القمر أن يصافح عبد الله، وتحرمه متعة رؤية النجوم وهي تطارد الجن الكافر.

وتمنّى عبد الله لو يخرج القمر، فيشاهده طفلاً يركض في حضن السماء فلا يتعثر، ويغتسل بضيائه الفضي كما في حوريات الجنة.

كيف فاتت عبد الله تلك المتعة؟ كيف غفل عنها؟ لم يفت الأوان بعد فالسنوات القادمة من عمره التي سيودعها في رحم المعجزة ستعوضه عن كل مافاته!

ليبحث عن الكهف. لقد شرد طويلاً عن هدفه. عليه ألاّ يضيّع دقيقة واحدة. . ! حسناً حسناً، أمامه الآن هضبة مرتفعة، وسيجد فيها كهفاً ما. . !

تسلّق سفح الهضبة. تنقّل في أطرافها فلم يجد الكهف الذي كان يحلم به، بل لم يجد أي كهف على الإطلاق، ماراآه كان مجرد مغارات بالكاد تتسع لجسده مقرفصاً كجنين في رحم أمه. إنها مضاوي حيوانات: كلاب أو ضباع أو ذئاب!

مادام عبد الله لم يجد كهفاً فإنه سيدس جسده الفاني، كي لايفنى، في إحدى هذه المغاور..! ولكن أحقاً أن لحمه لن يتعفّن ويتحول إلى ديدان صغيرة ومنفرة؟ بل ألن تأكله الضواري وتنشر عظامه في البراري؟

ماذا أصابك ياعبد الله..؟ أتريد أن تعطل معجزتك لأسباب تافهة..؟ في المعجزة لاأوهام ولامخاوف.. سيحفظك حافظ عمرك.. سيحفظك من الضواري والتعفن كما يحفظك من الضياع، وإلا فكيف تكون المعجزة معجزة، إن لم تكن لها حلولها لكل التفاصيل؟ لاتهتم بالتفاصيل،

من يهتم بها هو من يحقق المعجزة أيها الفاني! فضع بيضك كله في سلته، وفوّض أمرك إليه. . !

ولكنك لم تضع البيض كله في السلة. . فأين الكلب. . ؟

تباً. . ! لن يخرب كلب حلمه، فالمعجزة ستحدث رحمة به، وليس بالكلب، ومادمت قد استغنيت عن الصحب، فلتستغن عن الكلب أيضاً، لن يضيع عبد الله من أجل كلب. . !

دس عبد الله نفسه في المغارة، وانتظر أن يغفو، سيغفو كأنما في حضن أمه، وماأن ينام حتى تكون معجزته قد تحققت. فهو لن يشعر بمرور الزمن والسنوات كأنما هي إغماضة عين وانتباهتها، وتكون الأعوام قد كرَّت كحبات المسبحة. وسبح عبد الله في ملكوت الرب وهو يطارد كلباً يظل يبتعد. .

* * *

استيقظ عبد الله، الشمس ملأت البراري والبطاح خارج مغارته، قدماه كانتا خارج المغارة وقد شوتهما الشمس، خرج من مغارته كان عطشاً وجائعاً، نظر إلى الدنيا نظرة آدم وهو يخرج من الجنة، نظرة مولود في الثلاثين من عمره، كم لبث ياترى؟ الله أعلم بما لبث! قال لنفسه: أحقاً تركني ضجيج الزمن المولّي سليماً؟ مرر يديه على وجهه، تحسسه جيداً، وجهه مشدود القسمات كحجارة الصوان، لم تنزلق يده في حفرة، أو تتعثر في إخدود.. مازال عبد الله شاباً..!

نتف شعرة من رأسه، وأخرى من شاربه وثالثة من لحيته: إنها سوداء كقلب خائب. لقد نجح عبد الله. تحققت معجزته واحتفظ بعمره، وسيعود الآن على آثاره قصصاً بروح جديدة، بحظ جديد، بهمة مختلفة.. وبثقة راح ينزل من فوق الهضبة، ووقع خطاه يتردد كالصدى..!

وطأت قـدمـاه الطريق المعـبـد، والمدينة بدت قريبة تلوح له، تستدعيه لاحتضـانهـا. . ! فارقه صبره العزيز الأليف، لن يصبر حتى يصل المدينة على قدميه، والسيارات تعبره مجنونة السرعة كأنما تشتاق إلى كـهفها، ليوقف سيـارة عـابرة. . لكن ليس مـعـه نقـود. . ! من سيـسـأل عن النقـود؟ سيـحدثهم بمعجزته فينسون النقود، وربما لم يعد أحد يتعامل بها أصلاً، فما مر عليه ليس قليلاً. . ولكن. . ! توقف عبد الله كـصل يلهث في شمس حارة. . السيارات التي يشاهدها الآن لاتختلف عن تلك التي تركـهـا منذ ألف عـام مما يعـدون. . ! طمأن نفسه: إن هذه لن تتغير فماذا سيركب الناس للوصـول إلى المدينة، طيّـارات؟ إن الحـمـار الذي ركبه جدنا آدم يوم خروجه من الجنة ليلتقي بحواء، مـازال هو نفسه الحمار الذي يركبونه اليوم! انزع هذه الشكوك من قلبك، ولاتلوث فرحتك بالريبة!

أشار إلى السيارات العابرة فتجاوزته كالريح، ثم تهادى ميكرو متوقفاً نزولاً عند إشارته التي أصبحت عصبية وملحاحة، تلقفه المعاون وبجلافة ظاهرة زقّه: إلى الخلف.. إلى الخلف!

قال في نفسه: أخلاق المعاونين لم تتغير أيضاً، وهي لاتقل سوءاً عن أخلاق الشرطة..! لكن الاكتشافات المتوالية على رأسه كالمطرقة جعلته في حيرة: فاللباس لم يتغير، والراديو يذيع الأغاني نفسها، ونشرة الأخبار هي ذاتها والدعايات التي أصبحت تتخلّل نشرة الأخبار هي نفسها، عن العفريت المؤمن اللطيف الذي يتجاوز المسافات القصية في غمضة عين وانتباهتها، عن القرد الشبق لابس طاقية الإخفاء، وعن راكب بساط الريح، والجواد الطائر، عن عبد الله الصالح الذي لم نستطع معه صبراً.

ياللهول لم يتغير شيء منذ رحلته الميمونه؟

ألم ينم كفاية؟ أكان متعجلاً قليل الصبر كصاحب العبد الصالح؟

أخرجه المعاون من حيرته: اعطني أجرتك.. ! لامجال لتجاهله، كان ينتصب أمامه كالخازوق.

قال عبد الله: كم تريد؟!

قال المعاون بطريقته التي لاتقول شيئاً مباشراً، أو لاتقول شيئاً دون توبيخ أو تقريع أو زجر: لعلك لم تركب في حياتك بمكرو.. ! مائة درهم.. !

قال عبد الله مستغرباً: الأجرة..؟

قال المعاون: لا الحسنة.. تصدق علينا ياشيخ.. !

قال راكب: كانت الأجرة بعشرة دراهم، لكنهم زادوها البارحة..

قال عبد الله: من عشرة إلى مائة..؟!

قال المعاون: عشرة دراهم لم تعد تجيب

رغيف خبز ياحباب . . ! لقد نشَّفت ريقي، اعطني الأجرة وابق مفتوح الفم دهشة إلى أن تصل . . !

قال عبد الله: ليس معي نقود . . !

قال المعاون: مادمت لاتملك نقوداً كحمار الطحان فلماذا ركبت؟ أتظن أننا نعمل بالصدقة . . ؟

-: اسمعني، لأحكي لك حكايتي . .

-: ماشاء الله، وتريد أن تحكي لي قصة حياتك ومجاناً . . ؟!

-: أنا من أهل الكهف . .

-: كملت . . ! قلت لنفسي أنك لست آدمياً، كيف هي قردتك؟

وصرخ المعاون بالسائق: توقف وانزل هذا الحيوان القادم من الكهف.

جاهد عبد الله بين يدي المعاون الذي كان يجرّه بقسوة من أسماله، وحين توقف المكرو، وفتح بابه، دفعه المعاون حتى كاد يلقيه على

وجهه، وحمد عبد الله ربه لأن المعاون لم يرفسه على مؤخرته. . ! وظل واقفاً تتناثر حوله شتائم المعاون. . !

إذن لم يفلح عبد الله، ولم يتغير الزمن، وإن تغيّر فإلى الأسوء. . بل ربما لم تكتمل معجزته لأنه أخل بالشروط. . ليبحث عن كلب. . ! لكن الكلب أصبح أندر من خل وفيّ. . فما العمل؟ أحقاً لم تكتمل المعجزة بسبب الكلب، أو لأنه كان متعجلاً؟! لقد أفسد الأمر بقلة صبره ووضع اللوم على الكلب، إن المغارة نفسها لاتتسع لهما معاً. . !

لم ينم إلا جزءاً يسيراً جداً، هذا أكيد، ربما ثانية في زمن الله وهذه لاتعادل أكثر من سنة أو سنتين مما يعد الفانون. . !

ومشى بثبات وحزم إلى مغارته، لكنه لم يكف عن التفكير بكلب ضال يصاحبه.

* * *

نزل عبد الله من مغارته بعد أن لبث فيها، الله

أعلم بما لبث، وأعطته اختباراته الأولى لجسده وشعره الإحساس بأنه مازال شاباً، فقد احتفظت له المعجزة بسنوات عمره القادمة. . ! لقد ولد عبد الله من جديد.

استوقف ميكرو على الطريق وصعد إليه، لم يكن في الميكرو مذياعاً، لذلك لم يستطع عبد الله أن يحدد زمنه الحالي من الأغاني ونشرات الأخبار والدعايات. . ! لكن ثياب الناس كانت هي هي كما تركهم فيها، لم يعر هذه المظاهر الخارجية اهتماماً.

اقترب منه المعاون، قال: اعطني أجرتك. .

-: كم الأجرة؟

-: ألف درهم. .

إذن التحول حدث، ولكن إلى الأسوأ، لقد كانت حياة عبد الله عذاباً عندما كان الدرهم أضعاف الليرة التركية، فماذا ستكون عليه حياته

الآن بعد أن أصبح الدرهم أصغر بمئات المرات من الليرة التركية. إذن عاد عبد الله مرة أخرى إلى زمن لايناسبه.. ! حظه يفلق الصخر.. !

قال المعاون: أسنظل على هذه الحالة طويلاً..؟! أتستخير لتدفع؟

اهتز عبد الله: ماذا؟ أدفع ألف درهم؟

قال المعاون: كأنما أنت من كوكب آخر!

قبل أن يتفوه عبد الله بكلمة، كان الميكرو قد توقف، وتهامس الركاب:

- الشرطة.. الشرطة.. ! خذوا حذركم!

تركه المعاون واندفع مرحباً بالشرطة، أطل رأس أحدهم من الباب: انزلوا جميعاً!

وحين أصبحوا على الأرض، صعد أحد رجال الشرطة ليفتش الميكرو.. صفّوهم في طابور، وتقدم رئيس الدورية يتفحصهم بنظرة ملول، ثم قال: اسمعوا جيداً.. فأنا لاأحب كثرة

الكلام، ولاأكرره، ولامزاج لي اليوم، فلا تزيدوا في تعكير مزاجي، حتى لاأعكر يومكم. . ! اخرجوا فلوسكم. . ولاتخفوا شيئاً. . لاتدعوني أفتشكم أو أضربكم، أو انظر في مؤخراتكم. . فأنا أستطيع اخراج فلوسكم ولو أخفيتموها في لحمكم. . !

لم يقنع رئيس الدورية بما قدمه الركاب من فلوس، فأعطى أوامره بتفتيش الأحذية والمؤخرات واللحم، ومن يُكتشف أنه أخفى شيئاً في حذائه كان ينال «فلقة»، أما من أخفى في لحمه، فكان رئيس الدورية نفسه يجلده بالسوط حيث وجدت الفلوس. . !

قال عبد الله لجاره: لماذا لايتطوع الناس كلهم في الشرطة مادامت هذه حالهم. . ؟!

-: وهل تظن أنهم يقبلون. . ! فمن ستشلّح الشرطة إن أصبح الناس كلهم شرطة. . ؟

لعن عبد الله حظه، أهذا هو الزمن الذي

انتظره؟ ثم لماذا يظل يهرب من زمنه كالمطارد؟ لماذا لايضع رأسه بين الرؤوس ويقول ياقطاع الرؤوس. . ؟ كان يجب أن يدخل في سلك الشرطة، بدلاً من إضاعة وقته في معجزته التي أعادته إلى زمن أسوء بكثير من الزمن الذي هرب منه. . ! لم يعد لعبد الله من ملجأ إلا مغارته، لكنه لن يعود منها، ولن يقوم من رقدته، فلعلّ الله يدخله إلى جنته بالعذاب الأحمر الذي صادفه في دنياه. . ! إلاّ أن لطمة تلقاها من شرطي، جعلته يظن أنه وقع في جهنم وأن منكر ونكير يحاسبانه، لكن صراخ الشرطي أعاده من ذهوله:

- ألم أنادك ياابن الكلب. . ؟ لماذا جمدت كوتد؟ أين أموالك؟

- ليس لدي أموال.

- إن شكلك مريب. .

- أنا من أهل الكهف. .

- كيف دخلت البلاد إذن؟ لابد أنك لص أو جاسوس . . ؟

في تلك اللحظة بالذات، عندما أدرك عبد الله أنه ضاع تماماً، رآه، رأى الكلب يعدو بعيداً . . ودون أن يفكر ركض وراءه، وفي اندفاعه لم يعد يسمع الأصوات المحذرة التي تطالبه بالتوقف، ولم ير البنادق التي استهدفته نيشاناً وحيداً في أرض عارية، إلا من كلب يعدو بعيداً بعيداً!

السعالي

إذا دخل الجـمل من سم الإبرة يمكن أن يخرج عبد الله من محنته، أمله الوحيد هو أمل الغريق في التعلق بقشة، قشة عبد الله هي أخته السعلاة التي يجاهد للإلتقاء بها، أما محنته فهي كمحنة شبيهه عبد الله الخرافة الذي لم يكن يجد لبناته وأمهن ماتجده النملة، من رزق شحيح، في سعيها الذي لايدانيه، إلا أغنية الصرصار الفارغة من الزاد.

خرج عبد الله إلى الفلاة بحثاً عن الضباب والجراد، وهو مستغرق بالبحث عثرت عليه أخته فتلقته مرحبة: من زمان وأنا أبحث عنك. . أين كنت ياأخي؟!

قال: لم أكن أعرف أن لي أختاً.

-: ولكنك عرفت الآن.. ! قل لي: أأسرتك كبيرة..؟

-: أربع بنات وأمهن.

-: وكيف حالهن؟

-: إنهن يلهمن التراب كالحيات من شدة الجوع..!

- يخسا الجوع! هاتهن لأطعمهن شحماً ولحماً..!

عاش عبد الله، هو وبناته وزوجه، في كنف أخته، ثم تبيّن له أنها سعلاة، وأنها إنما تسمّنهم ليكونوا طعاماً شهياً لها، فسألها: أختي أختي أنت «سعلوّة»؟!

أما عبد الله الغريق بمحنته فقد صرف وقتاً طويلاً بحثاً عن أخته وحتى لو تبين له أنها سعلاة، فلن يغلط غلط سلفه الأحمق ويسألها عن نفسها.. بل سيتجاهل ذلك تماماً، فلتطعمهم اليوم ولتأكلهم غداً!

ولماذا يسألها إذا كان عبد الله أيأس من سجين ينتظر موت سجّانه ليتحرر..؟!

وعبد الله لايبحث عن أخته في البراري والقفار، فهو يعرف أن السعالي هجرت الأماكن الخالية والخربة، وسكنت الدور والقصور، لذلك يبحث عنها في الأحياء الراقية، فيرابط أمام الفاكهانيين والحلوانيين والجزارين، ويراقب السيدات المشتريات، يتمعّن فيهن جيداً، وحين تأتي أخته سيعرفها حتماً، فالنعمة لاتخفي آثارها والمحسنات اللواتي يمددن اليمين أو الشمال مفضوحات فضيحة اليد العليا. فمن ير اليد السفلى ويتجاهل اليد العليا التي تتوهج كشجرة غار؟!

ظن عبد الله، غير مرة، أنه عثر على ضالته، فركض أو تراكض، حمل الأكياس وأودعها السيارة، وبتذلل سأل السيدة الجميلة: أتريدين خادماً ياسيدتي؟

وماأن ترتفع حواجبها مستغربة حتى يدرك عبد الله أنه أخطأ، فأخته التي يبحث عنها اعتادت على من يخدمها..! إلا أنهن لم يكن يخيّبن فطنته تماماً، فكنّ يدسسن في يده بعضاً من النقود..!

اليوم، وهو يرابط أمام محل الفاكهاني، توقفت سيارة فارهة، وترجلت منها امرأة كالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي لاتكاد تستطيع السير لكثرة ماتحمل من الحلي والحلل، فأدرك عبد الله أنها هي! إنها أخته، منقذته من رزق النملة الفارغ كأغنية الصرصار..!

مدت المرأة يدها بقائمة طويلة الى البائع الذي راح مع معاونه يتراكضان لتعبئة الأكياس بشتى أنواع الفواكه، فيما سارع عبد الله إلى اختطاف الأكياس من أيديهم، وحملها بسرعة إلى السيارة. ظنه الفاكهاني مرافقاً للمرأة، وظنته المرأة عاملاً في المحل، وعبد الله يروح ويرجع بين المحل والسيارة حاملاً الأكياس بزهو..!

حاسبت السيدة البائع، وعادت إلى سيارتها، فتبعها عبد الله كالكلب الذليل.. التفتت إليه، دست في يده عشرة دنانير..!

رقص قلب عبد الله من الفرح، لن يضيع فرصته..! إنها أخته فليسألها، قال لها: ألا تريدين ياسيدتي أن أحمل لك الأغراض عندما تصلين؟!

ابتسمت المرأة بعد أن رازت الرجل الذليل الهزيل، وقالت له:

-: اصعد في الخلف.. !

لم يصدق عبد الله.. ظن أنه لم يسمع جيداً... تسمَّر في مكانه، فقالت بحزم من اعتاد إلقاء الأوامر: قلت اصعد.. !

وبقفزة واحدة كان عبد الله في داخل السيارة، وقد استكان ذليلاً في المقعد الخلفي!

انطلقت السيارة، فسألته المرأة: ماذا تعمل؟

قال: موظف..

-: وهل لديك أسرة؟

-: أربع بنات وأمهن ياسيدتي. لايشبعن الخبز.

-: ألا تعمل بعد الوظيفة؟

-: لا..

-: أتريد عملاً؟

-: ياليت ياسيدتي!

-: وماذا تعرف من الأعمال؟

-: أستطيع أن أعمل أي شيء مع أنني لاأعرف أي مهنة، ياسيدتي.

ضحكت المرأة، وقالت: أنت تصلح للعمل حقاً..!

ظن أنها تسخر منه، لكنها أكملت: العمل عندي صعب جداً!

-: ليس أصعب من الموت جوعاً!

-: هذا معقول.

-: جربيني ياسيدتي، أنا أتحمّل كالثور..!

-: ليس العمل هو الصعب، شروطه صعبة.

-: اشرطي كما تشائين. لو قلت لي: ارم نفسك في جهنم الحمراء فسأرمي نفسي..!

-: حدثت نفسها: أنت بغيتي حقاً، لأنك سترمي نفسك في جهنم الحمراء فعلاً لا قولاً.

التفتت إليه قائلة: أأنت مبصر أم أعمى؟

قال عبد الله لنفسه: لن يتخابث معها، بل سيثبت لها أنه لبيب، فهي تريده أعمى.. ليكن، هذا أمر بسيط ماذا ينفعه إبصاره دون فلوس؟

قال: بل أنا أعمى ياسيدتي..!

قالت: أتسمع أم أنت أطرش؟

قال ليقصّر عليها الطريق: بل أنا أطرش وأخرس ياسيدتي.

قالت: ألك قلب؟

قال: بل مات من كثرة ماعانى..!

وأسرَّ عبد الله لنفسه: إنها سعلاة حقيقية فهي تريد أن تلغي وجوده تماماً، ولاتُبقي له إلا حاجة الحيوان إلى الأكل.. ولكن ماذا سيخسر فهو وبناته وامرأته اختزلوا فعلاً في هذه الحاجة المتجددة.

دخلت السيارة من باب حديقة جميلة، ظهر في وسطها قصر. توقفت أمام باب القصر، وهرع اثنان من الخدم ليحملوا الأغراض، فساعدهم عبد الله، وولج القصر، وحار في أبهته، إنه كقصر النزهة، قصر هارون الرشيد ذي الثمانين شبّاكاً، والثمانين قنديلاً الذي دنسته الجارية أنيس الجليس وعشيقها.

لاشك أن كل غرفة من غرفه تحوي جارية كالبدر، النظرة إليها تعقب في القلب ألف حسرة.

تبع عبد الله الرجلين فقاداه إلى المطبخ، وضع أكياس الفواكه حيث وضعاها، فأعطته المرأة: مائة دينار، وقالت له: عد في الساعة العاشرة ليلاً لتباشر عملك . . ! إنك ذكي وفطن، وأنا أرغب دائماً أن استخدم من يعرف ماأريد دون كلام!

طار عبد الله من الفرح، فهو لبيب يفهم من الإشارة . . وقد نجح في مسابقة السيدة بالرغم من أنها أخبث من مسابقة الملك الذي يريد تزويج ابنته .

لكن عبد الله لن يتزوج ابنة الملك على كل حال . . ! يكفي أنه نجا هو وبناته من الموت جوعاً . . ! بل ما المانع في أن يفكر بابنة الملك نفسها، فما سيأخذه لقاء إلغاء نفسه سيكون دون حساب، وهذا ماتشهد به أعطياتها الأولى . . ؟!

خرج عبد الله مهرولاً وقد حدّد موقع البستان والقصر حتى لايضل عنهما حين يعود ليلاً . . !

* * *

خرج عبد الله من بيته بإحساس من يقبل على حياة جديدة، يعمرها الأمل، وقد لاحقته دعوات

زوجه بالتوفيق حتى الشارع، وكانت عودته اليوم قد أطلقت لسانها الذي جف في فمها كالخشبة، إذ للمرة الأولى، منذ زمن بعيد، دخل محملاً بالأكياس والأغراض! عقدت الدهشة ألسنة بناته وأمهن، للوهلة الأولى، ووقفن كالبلهاوات وكأنما شاهدن عفريتاً يخرج من قمقم النبي سليمان. . !

ثم لم يلبثن أن التففن حوله، وتجاذبنه بالقبل، والكلام الغزل وكأنما هو عريس محتمل، كل منهن تريد الفوز به. . !

وسألته زوجه التي كانت تفترس تفاحة حمراء كالدم: من أين؟! إلاّ أنها لم تكن تهتم بالمصدر حقاً. . ! قال: لقد وجدت عملاً. . !

لم يفصّل، وإن طلبن التفصيل، إلا أنه أمَّلهن في نهر من الفلوس سيغتسلن فيه. . ! فليطاردن أحلامهن، بعد أن أذبلهن اليأس العقيم، وليدخلن في رحابة الحلم كما دخل هو فيه. . !

ولكنه ليس حلماً، إنه حقيقة، مايحدث له حقيقة، فعمله الجديد سيمكنه من شراء كل مافي

نفسه، ففي لحظات أعطته مائة دينار. . ! فماذا ستعطيه لقاء كل ليلة؟!

سيأتي لزوجه بكل مارغبت باقتنائه ذات يوم! فأيام زوجه الخالية من الأحلام والطلبات ولَّت.

لقد عاد الأمل إلى زوجه كما يعود الولد الضال الى حضن أمه. . !

ليكن. . لتطلب زوجه ماتشاء، فهو يعتقد أن طاقة القدر قد انفتحت، ومادامت قد انفتحت فإنه لن يضيّعها في طلبات لاجدوى منها كأحمق ألف ليلة وليلة الذي شاهد ليلة القدر والذي رضخ لأحلام زوجه في تكبير ذكره، فخسر طلباته الثلاثة دون الحصول على شيء! ولن يكون كسلفه الأحمق الذي سأل السعلاة عمّا إذا كانت سعلاة. . !

تأفف عبد الله إذ اصطدم به رجل، وقال له: انظر أمامك. . ! وراغ بمهارة عن طريق سيدة فأعجبت بمهارته وابتسمت له. . ! وتجنب حفرة مليئة بالماء، وقفز بعيداً كي لايصيبه رشاش ماء موحل حركته سيارة مسرعة. . !

منذ متى لم يفعل ذلك عبد الله الذي كان يدب في الحفر الموحلة، أو يخوض في مستنقع ما، والذي يصطدم بالناس أو يصطدمون به، وهو شارد، فلا يكلف نفسه عناء النظر أو الاعتذار، أو التأفف.

لقد عاد عبد الله يتشبّه بالبشر، ويتصرف كتصرفاتهم هاهوذا يرى حاوية قمامة اندلقت أحشاؤها فتقذّر منها، وابتعد كثيراً عن الأقذار المتناثرة منها، وحرص على ألاّ يدوسها..!

لقد خلع عبد الله وجهه الوحشي، كما تخلع الحيوانات المسحورة جلودها لتعود إلى آدميتها! إن لقاءه بالسيدة قد أحياه حقاً! ولكنه لم يفكر بطبيعة العمل الذي سيقوم به..؟ هل سيسرٍ بالقيام به؟ هل سيرضيه؟ هل سيوافقه؟ أتريد عملاً يرضيك ياعبد الله؟ هل أصبحت تتدلل وأنت الذي كنت تهز ذيلك كالكلب حينما ترى امرأة محسنة علّها تجود عليك بفتات؟!

لاعلاقة لك بطبيعة العمل، المهم أن تقوم به على أكمل وجه ثم تقبض يوميتك، أو قل

ليليتك . . ! ثم هل نسيت شروط السيدة : أنت لاترى ولاتسمع ولاتتكلم؟! ماستراه في العمل ستتركه حيث رأيته ، فلا يجوز أن تحمله معك وإلا خالفت الشروط . . !

صحيح أنها لن تقتلك كما يفعل الملك فيمن يخالف شروطه ، ولكنها سترميك بأكثر من القتل ، بالجوع الذي خبرته .

إلاّ أن الشك لم يغادر عبد الله ، قلبه غير مرتاح ، فما العمل الذي على من يقوم به أن ينساه؟ لاشك أنه عمل قذر ، يلوث من يعمل به . . ! لكن ذلك سيكون أرحم من التلوث بوحل الشوارع وذل الجوع! ثم من سيراه ملوثاً؟ من يمكن أن يقول عن السيدة التي تشبه السيدة زبيدة أنها ملوثة أو قذرة؟ وحينما تتراكض الفلوس في يدي عبد الله كخيل السباق سيراه الناس كهارون الرشيد نفسه!

لكن هذا لايعزيّه . . ! أبدأ ينوح على نفسه ، وكأنه تحولّ إلى جنازة . . ؟! نعم فهو يعتقد أن أخته سعلاة حقيقية وأنها ستأكله . . !

ولكن عبد الله كان ينتظر ماهو أسوأ . فهو بحث عن أخته السعلاة، مع معرفته أنها أكلت سلفه، ولن يكون مصيره أفضل من مصير سلفه، وحتى لو لم يسألها سؤاله الأحمق.

ليكن ستأكله هو وحده، وهو لايبالي بنفسه، فالمهم أن تبقى عائلته في مأمن إن تلوث هو . . ؟!

استوقف عبد الله سيارة حتى لايتأخر عن موعد العمل، ثم لم يلبث أن وصل إلى القصر، لم يعترض طريقه أحد. كانت أنوار القصر المتلألئة تفوق أنوار قصر النزهة حينما أشعلتها الجارية أنيس الجليس وصاحبها، فرأى الخليفة ضوء القناديل والشموع ساطعاً في البحر.

في الداخل كانت الممرات والغرف تغص بالجواري، جوارٍ من كل صنف ونوع ولون، ومما عزّز يقينه بأنهن جوارٍ، أن ألبستهن كانت شفافة كجلود حوريات الجنة، فيقع النظر فوراً على الأذرع والسيقان والأكفال، وحتى حرير مابين الفخذين، والدم الذي يجري في العروق . . !

إن الثياب صنعت لتمنح العين متعة احتواء ماتحب، ثم ماأسهل أن تنزع ليجوس العاشق في أسواق الاثنين والثلاثاء الحريرية . . ! كانت الجواري يجرين وهن مشغولات بتزيين أنفسهن، أو ارتداء ملابسهن التي كالهواء، ولم يكنّ يبالين به، أو بغيره من الخدم، وكانت سيدته تلقي الأوامر، وعندما اقترب منها قالت له: اتبع هذا الرجل وسيدلك على عملك . . !

لم يتجاوز عمل عبد الله فرش المقاعد، أو تزيين الطاولات بالورود، أو حمل المأكول والمشروب والمشموم إلى السماط المدود، والوقوف على أهبة الاستعداد لتلبية أي طلب من أي زبون . . !

ولم يتأخر الزبن جاؤوا فرادى وجماعات، فحضر المباشرون وأعضاء لجان المشتريات والمبيعات والتجار والسماسرة، وأصحاب الحظوظ الذين اغتنوا بأموال مدينة النحاس، أو المدينة المسخوطة أو بمعاشرة حريم الأكابر . . !

وفي منتصف الليل جاء الخليفة الذهبي

وصحبه، من بغداد، ليتفقد أحوال الرعية، ويسمع حكاياتهم، وحكايات الجواري العاشقات اللواتي يغشى عليهن ساعة زمانية من شدة الوجد والسكر معاً. . !

وبعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين كاد أن يسقط عبد الله مغشياً عليه، لامن السكر أو الوجد، بل من هول المفاجأة، ورعدة الخوف التي لبست جلده فارتجف كثياب الجواري، لقد دخل الى القاعة من هم أسمى من أن يفكر بهم عبد الله، وأعلى من أن ينظر في وجوههم أو يذكر اسمهم مجرد ذكر، بل كان مجرد ذكر اسمهم يجعل عبد الله وأمثاله يبولون في سراويلهم. . وهاهو ذا يراهم بلحمهم وشحمهم وقد استقبلوا بعاصفة من التصفيق، وفوج من أحضان الجواري. . ! ياإلهي. . إنهم. . وعضّ عبد الله على لسانه قبل أن يفلت!

كاد يندفع إلى ذكر اسمائهم كما يندفع البغل الجسور في السمسم المقشور. . ! إلا أنه تذكر أنه أخرس وأعمى وأطرش. . ! ومن الخير له أن يكون

كـذلك، وإلا فـالويل لـه، إن هؤلاء كـفـيلون بدســه (. . . . . . .). . !

إذن ليسكت عـبـد الله، وهو قـد تيـقّن الآن أنه سيـحـصل على كل مـايريد، وسيـترقى في عـمله، وسيـملك حـاجـات كثيـرة تفـيض عن احـتيـاجـاته واحـتـيـاجـات بناته، وبنات الأخ والأخت والعم والجيران.

بل إنه سيـتمكن من النظر في عيـون هؤلاء دون أن يبول في سرواله، بل دون إحساس بالخوف بشرط أن يكف، في الصباح، عن الكلام المباح!

مع قـدوم من سكت عبد الله عن ذكر أسمائهم تجددت الطلبات، وازدادت وصلات الغناء حماساً، وجولات الرقص اختلاطاً، ثم تحول الزبن إلى حمير للجواري والجواري إلى حمير للزبن. . !

وكل القوم في رقص وطرب، وعناق واحتضان وتقبيل وتبويس وعض، ومباشرة للصدور والنحور والعـجان والفـروج. وهم في ملذات ألف ليلة ليليـة الى الصـبـاح! إذ قـبـيل الفـجـر بقليل: سـقـط الزبن

وجـواريهم كـالميـتين من شـدة السـهـر والسكر والتعب!

حملهم عبد الله وهم كالأموات ورماهم على الأسرة مع جـواريهم، وكـثـيراً مـاغـالب رغـبـة في البصاق في وجوههم، أو ضربهم على أقفيتهم، أو قرصهم من ذكورهم المنكمشة كفئران باغتتها قطة . .

لكنه كان يتهيّب أن يفعل ذلك، وبعد أن انتهى من تكديسهم في الغرف مع جواريهم، أغلق أبواب الغرف جـمـيـعـهـا، وقدم مـفـاتيح الكنز الذي تنوء به العصبة إلى سيدته، أختـه السعلاة، فمنحته ألف دينار!

ودون أن يسـأل السيـدة عـرف أنه طعـامـهـا الشهي، وكي لاتستبيح الذكور المنكمشة كالورود الذابلة عـائلتـه، أطلت رغـبـتـه في أن يكون صـهـراً للسلطان، كأعناق الأموال المسروقة، فعاجلها سيف الجزع ، فـاحـتـمـت، تقطر خـوفـاً، بسـويداء القلب الندي المرتعش كوردة الصباح!

الفهرس

٢٠٠٠ ط١/٤/١٩٩٨




طُبِعَ في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٨

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما ٢٠٠ ل.س